جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

دراسةٌ بيانيةٌ لآيةِ العزّ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ الإسراء.

إعداد

د. منصور بن عبد العزيز المهوس

أستاذ البلاغة والنقد المشارك في قسم اللغة العربية
كلية التربية -جامعة المجمعة

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

دراسةٌ بيانيةٌ لآيةِ العزّ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ الإسراء.

منصور بن عبد العزيز المهوس

قسم البلاغة والنقد في قسم اللغة العربية- كلية التربية -جامعة المجمعة

البريد الالكتروني:-m.almohews@mu.edu.sa

الملخص:

جاء هذا البحث محاولة للوقوف عند الإعجاز البياني لآية من كتاب الله، وهي آية العز، خاتمة سورة الإسراء، بوصفها مثالًا للقيم البيانية في سورة الإسراء، التي هي مثال للقيم البيانية، ومستوياتها في القرآن المجيد، وهذا الوقوف يأتي تشرفًا بالتمعن فيما تكتنزه هذه الآية من وفرة في الإشارات البيانية؛ لتحليلها تحليلًا بلاغيًا، وصولًا لغاية جليلة، وهي الكشف عن بعض أوجه الإعجاز البياني في هذه الآية؛ لأنه لا يمكن استيفاء جميع عناصر البيان في الآية إلا بدراسة شاملة وفق متطلبات الدراسة البيانية البلاغية، ومن أجل الاقتراب من مظاهر هذا البيان المتفرد، والدخول في محاولة سبر ما فيها من بيان أعلى جاء البحث في خمسة مطالب: الأول الدلالات، تناول بلاغة أسلوب التعريض. الثاني التراكيب، تناول أساليب: الأمر، والنفي، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والتقسيم، وتناسب الأطراف. الثالث الألفاظ، تناول أسلوبي التعريف والتنكير، ووزن الفعل مضعّف العين. والرابع الأصوات، تناول بلاغة الاشتقاق، وجمالية الفاصلة. والخامس تناول بلاغة مناسبة الآية لما قبلها من آيات السورة، وما بعدها من خارج السورة.

وهذه المطالب فرضتها الدراسة البحثية، وليس ظاهرها أنه فصل بين جوانب الوفرة البيانية في هذه الآية العظيمة، وإنما بها يلم الدارس تنوع مفردات البيان الأعلى فيها، وبها يصل إلى رؤية متكاملة شاملة عنها، هذا ما ترجوه الدراسة، وقد نهجت الدراسة الأسلوب التحليلي الاستقرائي في رصد هذه الوفرة البيانية في هذه الآية الكريمة.

الكلمات المفتاحية: النظم القرآني، سورة الإسراء، آية العز، الإعجاز البياني للقرآن، التحليل البلاغي.

Rhetorical Study for the Verse of Glory (And say, "Praise to Allah, who has not taken a son and has had no partner in [His] dominion and has no [need of a] protector out of weakness; and glorify Him with [great] glorification."
(111 Surah Al-Israa)

Mansour Abdulaziz Almehawes
Department of Arabic Language, Faculty of Education - Majmaah University
Email: m.almohews@mu.edu.sa

Abstract:
This research is prepared as an attempt to determine the rhetorical miracle of a verse from the Book of Almighty God, which is the Verse of Glory, end of Surat Al-Isra, as an examples of the rhetorical values in Surat Al-Isra, which is an example of the rhetorical values, and their levels in the Glorious Qur'an, which comes as an honor to consider what the treasure of this verse provides in the rhetorical phenomena; to analyze it rhetorically, reaching to an extreme goal, and to discover some rhetorical miracles in this verse; because it is not possible to fulfill all the aspects of the rhetoric in the verse except with a comprehensive study as per the requirements of rhetorical study, and to draw closer to the aspects of this unique statement, and to get into an attempt to explore the grater rhetoric in it, the research was divided into five topics: the first is semantics, dealing with the rhetoric of allusion style. The second is about the structures, methods of imperative, negative, anastrophe, separation and connection, division, and proportionality and the third is the words, which deal with the styles of definite and indefinite, and the pattern of the verb "Mu'dha'āf al-Ayn." The fourth is the sounds, the rhetoric of derivation, and the aesthetics of the comma. The fifth deals with eloquence that is appropriate in context to the verses of the Surah that precede it, and what follow it from outside the Surah.
Therefore, the topics are assumed as the research study, and not what appears in them that it is a separation between the elements of describing charts in this great verse. By which a learner becomes aware of different great rhetoric vocabulary in it, reaching to a comprehensive vision of it. This is what the study means for, and the study has adopted an inductive analytical methodology to monitor this describing chart in this noble verse.

Keywords: Quranic Systems, Surah Al-Israa, The Verse of Glory, Rhetorical Miracle, Rhetorical Analysis.

المقدمة:

كان القرآن الكريم ولايزال معجزته ﷺ، ومكمن إعجاز القرآن بيانه المتفرد، الذي كان به التحدي لأرباب البيان وقت نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولذا انكب علماء المسلمين وغيرهم لدراسة وجوه الإعجاز وبيان أسراره، ومع اجتهادهم في ذلك إلا أنهم لم يتوصلوا إلى اكتفاء منه؛ لأنه معين لا ينضب. قال سهل بن عبد الله: لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألفَ فهْمٍ لم يبلغ نهاية ما أودعه الله من آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه؛ وإنما يُفهم كلٌ بمقدار ما يفتح الله عليه"(١)، فإعجاز آية منه هو إعجاز للقرآن كله لا تنفصل ولا تنقطع عن المورد العذب الكبير؛ ولذا جاءت محاولة هذا البحث للوقوف عند الإعجاز البياني لآية من كتاب الله، وهي آية العز، خاتمة سورة الإسراء، بوصفها مثالًا للقيم البيانية في سورة الإسراء، التي هي مثال للقيم البيانية ومستوياتها في القرآن المجيد، وهذا الوقوف يأتي تشرفًا بالتمعن فيما تكتنزه هذه الآية من وفرة في الإشارات البيانية؛ لتحليلها تحليلًا بلاغيًا؛ وصولًا لغاية جليلة، وهي الكشف عن بعض أوجه الإعجاز البياني في هذه الآية؛ لأنه لا يمكن استيفاء جميع عناصر البيان في الآية إلا بدراسة شاملة وفق متطلبات الدراسة البيانية البلاغية، ومن أجل الاقتراب من مظاهر هذا البيان المتفرد، والدخول في محاولة سبر ما فيها من بيان أعلى، جاء البحث في خمسة مطالب: الأول، الدلالات، تناول بلاغة أسلوب التعريض. الثاني، التراكيب، تناول أساليب: الأمر، والنفي، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والتقسيم، وتناسب الأطراف. الثالث، الألفاظ، تناول أسلوب التعريف والتنكير، ووزن الفعل مضعّف العين. والرابع، الأصوات، تناول

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، تحقيق: محمد أبو الفضل: ٩/١.

بلاغة الاشتقاق، وجمالية الفاصلة. والخامس، بلاغة مناسبة الآية لما قبلها من آيات السورة، وما بعدها من خارج السورة. وهذه المطالب فرضتها الدراسة البحثية، وليس ظاهرها أنه فصل بين جوانب الوفرة البيانية في هذه الآية العظيمة، وإنما بهذه المطالب يلم الدارس تنوع مفردات البيان الأعلى فيها، وبها يصل إلى رؤية متكاملة شاملة عنها، هذا ما ترجوه الدراسة، وأتوسل إلى الله العليم الحكيم أن يفتح على الدارس ما يوفقه للاقتراب من مراد البيان الأعلى من هذه الآية.

وقد اعتمد البحث منهجًا تحليليًا يقوم على جانبين: الجانب النظري والجانب التطبيقي، فالنظري مهاد للتطبيقي ومزدلف له؛ إذ الجانب التطبيقي هو المراد وعنده محط الرحال، وقد لجأ البحث إلى مجموعة من كتب التفسير البيانية؛ مستنطقًا إياها لما فيه تجلية مواطن البيان، وجمال النظم في هذه الآية، مناقشًا تارة بعض آراء أصحابها الأجلاء.

هذا، وما كان حسنًا فمن الله وفضله، وما كان ضعيفًا فمن جهلي، ومن النفس الأمارة بالسوء.

التمهيد:

بين يدي سورة الإسراء:

هي من السور المكية [1]، وقد نقل السيوطي اتفاق بعض التابعين ومن بعدهم من العلماء على مكيتها[2]. ولها عدد من الأسماء: أشهرها الإسراء، كما هو في أغلب المصاحف، وتسمى أيضاً سورة (سبحان)؛ لأنّها افتتحت بسبحان، وفي سياقها يتكرّر تنزيه الله وتسبيحه[3].وسُمّيت بسورة (بني إسرائيل)"لحديثها عن ماضي بني اسرائيل وحاضرهم ومستقبلهم[4] . وقد نزلت بعد سورة القصص، وقبل سورة يونس، وعُدّت السورةُ الخمسين في تعداد نزول سور القرآن"[5].

وقد امتازت هذه السورة بعدد من الخصائص، من ذلك: أنها جمعت بين موضوعات السور المكية والسور المدنية؛ ففيها الحديث عن الدين والعقيدة والوحدانية، ووسائل المحاججة في وحدانية الله، وفيها الحديث عن القرآن بشكل مفصل، وهذا من خصائص السور المكية، أيضًا اشتملت على وصايا في الآداب ومكارم الأخلاق، والعلاقات بين الفرد والمجتمع، وهذا من خصائص السور

---

(١) ينظر: الزركشي، البرهان: ١٣٩/١؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٤٢٩-٢٠٠٨م: ٣٥

(٢) إلّا خَمْسَ آياتٍ :﴿وآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ﴾ الآية: ٢٦.﴿ولاتَقْرَبُواالزِّنا﴾الآيَةَ:٣٢ ﴿ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ الآيَة: ٣٣.﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآيَةَ:٥٧.﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ الآيَةَ:٧٨. ذكره الألوسي عن الحسن. ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١٥هـ: ٣/٨.

(٣) ينظر: الزركشي، البرهان: ١٢٠/١.

(٤) ينظر: السيوطي، أسرار ترتيب السور، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا – مرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع: ١٠٣

(٥) ابن الزبير الغرناطي، البرهان في ترتيب سور القرآن، وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، تحقيق: محمد شعباني، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م: ٢٤٤.

المدنية. ومن خصائصها، أنها امتازت بتوسطها القرآن، كأنما تُذكّر بأنه كتاب هذه الأمة التي جعلها تعالى أمة وسطًا. ومن خصائصها، ما ذُكر فيها من خصائص خُصّ بها النبي ﷺ، "ولا أعلمُ في الكتاب العزيز سورةً تضمَّنت من خصائصه – ﷺ؛ التي فَضَل بها كافة الأنبياء مثل ما تضمّنت هذه السورة"(١).

آية العز:

أخرج الإمام أحمد في مسنده(٢)، قال: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رِشْدين، عن سهل عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: " آيَةُ العِزِّ: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ ولَدًا﴾ الآيَةَ كُلَّها" ، ورواه الإمام الطبراني في المعجم الكبير(٣). أما عن فضلها فقد روى الطبري بسنده، قال حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة: "ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يعلِّم أهله هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله والكبير"(٤).

(١) المرجع السابق: ٢٤٤، وينظر: البقاعي، نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م: ٢٨٨/١١.

(٢) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨، (حديث رقم: ١٥٦٣٤)٢٤/ ٣٩٦.

(٣) من طريقين: الأول، عن أسد بن موسى عن ابن هليعة عن زبان عن سهل. (حديث رقم: ٤٣٠) ٢٠/ ١٩٢. والآخر: عن محمد الحضرمي عن أبي كريب، عن رشدين بن سعد (حديث رقم: ٤٢٩) الصفحة نفسها. ينظر: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ.

(٤) ابن جرير الطبري، جامع البيان، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة هجر، القاهرة، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢: ١٣٨/١٥.

المطلب الأول: الدلالات.

التعريض:

ذكر الراغب الأصفهاني في باب (عرض) " العرض خلاف الطويل، وأصله أن يقال في الجسام ثم يُستعمل في غيرها ... والتعريض كلام له وجهان من صدق وكذب وظاهر وباطن"(١) فهو مما تُوسّع في دلالته، فأصله في المحسوسات، ثم انتقل إلى المعنويات من باب التوسع في الدلالة؛ ولذا يعرفه ابن الأثير بقوله " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم" (٢)، ويمد ابن الأثير في دلالة التوسع فيشير إلى أن التعريض أخفى من الكناية؛ لأن دلالة الكناية لفظية، بينما دلالة التعريض من جهة المفهوم، وأن دلالته لا تتأتى إلا من طريق التلويح والإشارة، تنشأ عن طريق التركيب في العبارة لا المفرد(٣).

وعن دلالته، أيضًا، يقول الزركشي " قيل هو للدلالة على المعنى من طريق المفهوم. وسمي تعريضًا لأن المعنى باعتباره يفهم من عرض اللفظ؛ أي من جانبه"(٤)، فدلالته تسوقها قرائن الأحوال من سياق داخل النص، أو مقام خارج النص، أو بهما معًا.

وجاء في لسان العرب أن "الألفاظ معاريض المعاني... والمعاريض من الكلام: ما عُرّض به ولم يُصرَّح... والتعريض: خلاف التَّصريح. والمعاريض : التَّورية بالشيء عن الشيء" (٥). وبهذا الاستعراض لمعنى التعريض يتضح أن له

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، باب (عرض)٠

(٢) ينظر: المثل السائر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، بدوي طبانه، دار نهضة مصر، القاهرة: ٣/٥٧.

(٣) المرجع السابق: ٣/٥٣.

(٤) البرهان في علوم القرآن، ٢/٣١١.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر (د.ت)، مادة (عرض).

مجريين، الأول، لغوي، والثاني، في مصطلح علماء البيان، وهما يتعاضدان في الكشف عن مفهوم التعريض، وأنه يكتنفه قدر من الخفاء، لكن هذا الخفاء ليس بعيدًا، وعميقًا يبلغ حد الغموض، وإنما هو خفاء قريب، كأنه تصريح بالمراد، ولكن لا يُوفّق إليه إلا السامع الفَهِم.

وللتعريض في البيان القرآني فوائد جمّة تتداخل بين اللطف والتهديد، فمنها، حسن الدعوة للخصوم، ومنها أن في صرف الخطاب عن المقصود في الظاهر إشارة خفية إلى أنه هو المقصود فيه[١] ، وذلك لأغراض تخاطبية عديدة، منها: أن المخاطب يوجعه التعريض أكثر من التصريح، وهذا يصلح مع العرب الذين نزل بينهم القرآن، ويدركون البيان العربي. ومنها، هوان المخاطب على المتكلم، فكأنه غير حاضر لحظة الخطاب، وأنه غير مستحق لمباشرته بالقول، وأنه إن لم يرعو عن غيه فإن العقاب محيط به من خلال هذا التعريض، بعد أن خوطب صريحًا في سياقات مختلفة، وهذا مناسب مع النصارى واليهود، يقول الجاحظ "رأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطًا، وزاد في الكلام"[٢] .

وهذه الفوائد الدلالية للتعريض متجلية في آية العز، وسيتناول البحث دلالة التعريض في هذه الآية من خلال مظهرين، الأول: دلالة العبارة، الثاني: دلالة السياق.

المظهر الأول: دلالة العبارة. وهي تنشأ في التعريض من المفهوم، وليس من اللفظ أو عن طريق التأويل. في البدء تكون الدلالة في اللفظ المركب وليس

(١) ينظر: البرهان: ٢/ ٣١١.

(٢) الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م: ٩٤/١.

المفرد، ثم يأتي المعنى التعريضي الذي يُلمح من السياقات الخاصة بالآية، وليس من العبارة نفسها[1] فالآية أمر حقيقي مباشر من لدنه ﷻ للنبي ﷺ تقرر حقيقة استحقاق الله للحمد والتمجيد والتكبير، وهو في الآن نفسه تعريض؛ إذ هو تعريض بمن اعتقد بأن الله ﷻ قد اتخذ ولدًا، وأن له شريكًا في الملك، وأن له وليًا من الذل، وهم المشركون واليهود والنصارى وغيرهم، فهو توبيخ لهم وتقريع، وتعيير لهم بقصور نظرهم عن الله ﷻ وملائكته وعن الجن، مع ادعائهم للفطانة والتبصر، فالتقت هنا الحقيقة بالتعريض في سياق واحد.

ويفصل أبو السعود في أهل الخطاب بهذا التعريض، فيقول: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ ولَدًا﴾ كما يزعم اليهود، والنَّصارى، وبنُو مَلِيٍّ. حيث قالوا: عُزَيْرٌ ابن اللَّه، والمسيح ابن اللَّه، والملائكة بنات اللَّه تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ﴾ أي:الأُلُوهِيَّةُ، كما يقوله الثَّنَوِيَّةُ القائلون بتعدُّد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وليٌّ مِنَ الـذُّلِّ﴾ ناصر، ومانع منه لاعتزازه به، أو لم يوالِ أحدًا من أجل مذلَّةٍ ليدفعها به"[2]. وجاء ذلك في جملة خبرية، صلة للموصول، التي ظاهرها أمر للنبي ﷺ بالتوحيد، وإثبات ربوبيته، وتنزيهه والثناء عليه، وباطنه تصحيحٌ لأخطاءٍ في تصورات الناس في الله ﷻ . وبيان أنّ هذا تعريض؛ أن المخاطبين الصريحين بهذا الأمر، وهم النبي ﷺ والمؤمنون معه، قد آمنوا بالله وأيقنوا أنه المستحق للحمد وحده، وللنبي ﷺ بالرسالة منذ أن هداهم الله للإسلام، بخاصة أن نزول سورة الإسراء كان ترتيبها (٥٠) في ترتيب النزول؛ أي بعد كثير من السور التي قبلها، التي فيها كثير من الأوامر والنواهي وتزكية النفوس،

(١) ينظر: إبراهيم الخولي، التعريض في القرآن، دار البصائر، القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤: ٨٢.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٥٤/٥.

فهو تعريض بهذه الطوائف الثلاثة وغيرهم، الذين مازالوا يحادون الله بهذه الاعتقادات الباطلة. فالآية ظاهرها خطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين، وباطنها تعريض بغيرهم، فمعناها القريب الظاهر طلب الحمد والتعظيم، بينما معناها العميق غير الظاهر التبكيت والتقريع والتعريض بهؤلاء الذين زعموا ما زعموا، تعالى الله ﷻ عما يقولون علوًا كبيرًا، فجُعل ذلك ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر(١)، وفي هذا دعوةٌ بطريق الاستدراج للمعاندين إلى الإذعان والتسليم بوحدانية الله ﷻ.

المظهر الثاني: دلالة السياق على أن المقصود بالآية التعريض بهؤلاء المعاندين من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم، يقول الزركشي عن أهمية دلالة السياق: ليكن محطّ نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوّز(٢). ودلالة السياق في هذه الآية تتشكل في أمرين: الأول، داخل الآي الحكيم، وهو نوعان: داخل السورة ومن خارجها. والأمر الثاني، خارج الآي الحكيم،؛ من دلالة السنة المطهرة.

الأمر الأول: السياق الداخلي في الآي الحكيم.

أ–السياق الداخلي للسورة.

١: إن قوله ﷻ ﴿ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ دليلٌ وعلَّةٌ للحمد والتكبير، ويوضح الألوسي ظاهرة التعليل لاستحقاق الله ﷻ للحمد في القرآن، فيقول "لا يكاد يقع الحكم باستحقاق الحمد إلّا مُعلَّلًا بالأمور الواضحة الدالَّة على صفاته سبحانه وتعالى الجليلة وأفعاله الجميلة ولا يُكْتَفى باسم الذّات اللَّهُمَّ إلّا في تسبيحاتِ

(١) ينظر: القزويني، الإيضاح: تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م: ١٦/٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣١٧/١.

المُؤمنين وتحميداتِهِم لا في مُحاجَّةِ المنكرين"[1]. فهذه الظاهرة الحجاجية تشير إلى أسلوب التعريض في هذه الآية. ولو جاء سياق الآية صريحًا في ذم سوء اعتقادهم لكان السياق (الذي لم يتخذ ولدا كما تقول اليهود والنصارى، ولم يكن له شريك في الملك كما يقول الوثنيون) ولكنه عدل عن ذلك إلى مقام التعريض، فكان أبلغ في الخطاب، وأشد ذمًا وتقريعًا من التصريح بهم.

٢- إن هؤلاء الضالين قد فهموا أن الآية تشير إليهم؛ لأن هناك سياقًا سبق هذه الآية في السورة نفسها ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٗ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ (آية:٤٢)، قرأ ابن كثير وحفص (يَقُولُونَ) بِالْيَاءِ، والباقون (تَقُولُونَ) بالتَّاء على الخطاب[2]، فهو على هذا الخطاب أكثر تصريحًا؛ لأن المخاطب حاضر في الخطاب، ولكن بما أن السياق سياق توبيخ؛ فإن الأنسب له هو أسلوب الغيبة، وهو أبلغ من المخاطب، فكأنه انصرف عن مخاطبتهم تحقيرًا لهم، ولأن السياق جاء على الغائب فلم يقل (قل لو كان معي...) فكان التناسب في الأسلوب أولى؛ بيد أن قراءة الجمهور على المخاطب أقرب للتوافق ودلالة التعريض بهم في آية العز، ويعضد قراءة الجمهور الآية التي قبلها ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (آية: ٤٠)، فيكون الأسلوب هنا على المخاطب، وعند التعريض بهم في آية العز يلتفت الأسلوب إلى الغيبة، فيحدث التنوع، وتتأكد الدلالة على أن المقصود هو التلويح بفعلهم وقولهم،

(١) الآلوسي، روح المعاني: ٢٣١/١٢

(٢)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م: ٨٨/١٣

كذلك فإن في بناء الأسلوب على ضمير الغيبة – في آية العز – كمال التأدب مع الله في موطن التعريض بمقولات المغضوب عليهم والضالين وغيرهم.

ب- **السياق الداخلي للنص القرآني**، من خارج سورة الإسراء، وهذا السياق من القرائن التي تحيط بالحدث اللغوي، وتؤكد دلالة العبارة في التعريض رغم انفصاله عنها(١).

١- من هذا السياق ما يطلق عليه أسلوب (الهدم)، وهو "أن يأتي الغير بكلام يتضمن معنى، فتأتي بضده؛ فإنك قد هدمت ما بناه المتكلم الأول"(٢). ومنه آية العز؛ إذ بها هدمٌ غير مباشر لمقولات اليهود والنصارى من مثل قولهم ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ المائدة (آية:١٨)، ومنه قولهم ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ (التوبة، آية: ٣٠)، وهدم لمقولات كفار قريش والعرب ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ (مريم، آية: ٨٨).

وقد اعتمد الهدم على هدم الأصل في الادعاءات، وهو اتخاذ الله ولدًا، ولم يأت الهدم على بقية الافتراءات في آية العز (ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل)؛ إذ بهدم الأصل والأساس لا تقوم للفروع قائمة، فـ"انتفاء الأعمّ يقتضي انتفاء الأخصّ فإنَّه لو كان للَّه ولد لكان الأولاد شركاء أولياء من باب الأولى"(٣).

(١) ينظر: إبراهيم الخولي، التعريض في القرآن: ١٢١.

(٢) الزركشي، البرهان ٣/ ٤١٢

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م: ١١٤/١٨

٢- ومن السياق الداخلي في الآي الحكيم أنه سبق هذا التعريض بالنفي تعريض في آية سورة الفرقان لم يذكر فيه (ولم يكن له ولي من الذل)، وكان ترتيب نزول سورة الفرقان (٤٢) في النزول، ثم اكتمل التعريض في آية العز، ثم أتى بعد هذا التعريض تصريح بهذا النفي في سورة (المؤمنون)، وجاء ترتيب نزولها (٧٤)، قال ﷻ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ (الآية: ٩١)، وهكذا نوّع القرآن في طرائق تنزيهه ﷻ عن تلك المقولات والافتراءات، وتدرج في التنزيه، مراعاةً لحال المخاطب، واستمالةً له لقبول الحق، وهنا اتسعت دلالة السياق وامتدت فأصبحت بعض آيات الإسراء وخارجها سياقًا لهذه الآية، وتجليةً لبلاغة التعريض بها، التي تؤكد وحدانية الله وقهره وعظمته، وأنه المستحق وحده للحمد ﷻ، وأنه مهما بالغ العبد في تحميد ربه وتكبيره وتنزيهه فلن يبلغ ذلك إلا بتوفيق من الله وعون منه، وبذلك تحقق شرط التواصل في أسلوب التعريض بين طرفي الخطاب في آية العز، وهما النبي ﷺ والمعاندين على اختلاف اعتقاداتهم الباطلة بطريق أشد تقريعًا وأعنف توبيخًا من التصريح.

الثاني: دلالة السياق الخارجي للتعريض من السنة المطهرة بأن المراد بالمعرّض بهم هم تلك الأمم المعاندة، من ذلك ما رواه الإمام الطبري بسنده، قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني أبو صخر، عن القُرَظي، أنه كان يقول في هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ....الآية. قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولدا، وقالت العرب: لبيك، لبيك، لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ الله، فأنزل الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ﴾ أنت يا محمد على ما يقولون ﴿تَكْبِيرًا﴾[١].

فهذا الحديث جاء في سياقٍ خارجَ نصّ آية العز، يعضد دلالة التعريض فيها، ويزيد من إضاءة الآية وجوانبها المتعددة.

وبهذه السياقات المتعددة للتعريض نتوصل إلى معنى المعنى، كما عنّاه عبد القاهر الجرجاني بقوله " تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، و"بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[٢]، ومعنى المعنى، أو المعنى الثاني المُلوّح به في هذه الآية –وأشارت إليه السياقات بأنواعها– هو أن اجتماع نفي الولد والشريك والذل عنه في معرض طلب الحمد والتنزيه إشارةٌ أنّ من هذه صفاته هو القادر على الإنعام؛ لذا فهو المستحق للحمد. ويشير الزمخشري إلى هذا المعنى بقوله: "فإن قلت: كيف لاقى وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد؟ قلت: لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد"[٣].

ويزيد أبو السعود توضيحًا لمعنى المعنى لهذه الآية فيقول "وفي التَّعَرُّض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذانٌ بأنَّ المُسْتحِقَّ للحمد مَن هذه نُعُوتُهُ دون غيره، إذْ بذلك يتمُّ الكمال، والقدرةُ التّامَّةُ على الإيجادِ، وما يتفرَّعُ عليه مِن إضافة أنواع النعم، وما عداه ناقصٌ مملوكٌ نعمتُهُ، أو مُنْعمٌ عليه"[٤]. ففي التعريض بشأن الموصوفين المعرض بهم ذم وتقريع لهم لشناعة مقولاتهم

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٩٣/١٥

(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢: ٢٦٣.

(٣) الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ: ٧٠١/٢.

(٤) إرشاد العقل السليم: ١٥٤/٥.

ومعتقداتهم، وتعليم للنبي ﷺ ولأمته أن يحمدوا ربهم، ويكبره تكبيرًا؛ لأنه المستحق ﷻ لذلك.

وفي هذا التعريض إشارة وتلميح لطيف يخص المؤمنين، وذلك عندما عُطِفَ عليه قولُهُ تعالى :﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ إذ فيه "تَنْبِيهٌ عَلى أنَّ العَبْدَ وإنْ بالَغَ في التَّنْزِيهِ والتَّمْجِيدِ، واجْتَهَدَ في الطّاعَةِ والتَّحْمِيدِ يَنْبَغِي أنْ يَعْتَرِفَ بِالقُصُورِ"(١). وفيه –أيضًا– إشارة أخرى، تخص النبي ﷺ ، وهي أن ختم السورة بآية العز، إشارة إلى أن من أُسري به إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة في الدارين(٢)، وهذا ما كان؛ فقد نصر الله نبيه ﷺ في المواطن كلها، ورفع قدره على سائر الأنبياء والمرسلين، ومن أكبر الدلائل على ذلك حادثة الإسراء والمعراج، وما رأى فيها النبي ﷺ من الآيات العظام، ومن القرب من السدرة المنتهى، كما قال ﷻ مبينًا إحدى الغايات من الإسراء به (لنريه من آياتنا).

ودلالة التعريض في هذه المنفيات يختلف عمقها وقوة التلميح فيها؛ ففي الجملة الأولى المنفية دلالة التعريض تشير إلى معنى نفي الولد عن الله، فهو تعريض بهم؛ بيد أن العبارة كانت (اتخذ) ولم يقل (يلد) وفي ذلك إشارة أعمق؛ إذ "نفْيَ اتِّخاذِ الولدِ ظاهرٌ في نفْيِ التَّبَنِّي، ويُعلَمُ منه نَفْيُ أنْ يكون له سبحانه ولدُ الصُّلْبِ مِن بابِ أولى، وقد نُفِيَ ذلك صريحًا في قوله تعالى :﴿لَمْ يَلِدْ﴾" (٣) في سورة الإخلاص، وكان ترتيب نزولها رقم (٢٢) بينما نزول سورة الإسراء كان (٥٠)، أمّا الجملة الثانية، نفي الشريك، والثالثة، نفي الذل، فهي أقل وضوحًا، وبنيتهما أعمق، كما أوضحته الدراسة.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ١٥٥/٥

(٢) ينظر: ابن عجيبة، البحر المديد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة ١٤١٩ هـ: ٤٤/٣.

(٣) الألوسي، روح المعاني: ٢٣١/١٢.

وبعد؛ فإن مجمل دلالة أسلوب التعريض في هذه الآية يؤكد أن المقام مقام حمدٍ وتنزيه في آنٍ.

المطلب الثاني: التراكيب

أولًا: فعل الأمر، وهو أمران في هذه الآية.

أ: (قل). وهو خطاب مباشر للنبي ﷺ؛ بيد أنه خطاب عام في هذه الآية، كغيره في أغلب أوامر القرآن، قال ابن عاشور إن "الخطاب بالأمر للنبي ﷺ، ولكن قد تقرر من اصطلاح القرآن أن خطاب النبي بتشريع تدخل فيه أمته، إلا إذا دلّ دليل على اختصاصه بذلك الحكم"(١)، ويشير الغزالي إلى مقام هذا الفعل بقوله "وقد استوقف الأمر بـ(قل) نظر العلماء، إنه تعليم من الله لرسوله، وتعليم من الرسول للناس، وقد سيقت بعد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ما شاء الله من النصائح والعظات والأحكام"(٢).

ولهذا الفعل من ناحية الصنعة النحوية بنيتان؛ بنية ظاهرة وبنية عميقة، فالظاهرة الفعل نفسه جاء كلمة، والبنية العميقة تكونت من كلمتين، مركبة من الفعل (قل) والضمير المستتر فيها وجوبًا (أنت)، وهو النبي ﷺ، وكل من يصح خطابه، فـ(قل) جملة تامة يحسن السكوت عليها، فهي مكونة من فعل وفاعل؛ ولذا يتلاشى ما يظهر في بادي الرأي أن هذا الأمر من باب الإلزام والوجوب فحسب؛ لأن تلك البنية العميقة للفعل يتكشف عنها، عند التأمل، أنها تنعطف على لطف في العبارة، وتشريف للنبي ﷺ في الخطاب، وحسن تعليم له، وكمال توجيه، وهو –أيضًا– فعل متعدٍ لمفعول واحد؛ أي له متعلق به، وهو المفعول به، الذي أتى جملة اسمية (الحمد لله) وهي منصوبة مقول القول،

(١) التحرير والتنوير: ١٥/١٨٤.

(٢) فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٦، ١٩٦٥م:٣٠.

أمّا المقول له فغير ظاهر أيضًا، فلم يُعيّن، ولم يُصرّح به، والمقصود به أمة محمد ﷺ والمشركون وغيرهم، ومن يقولون تلك المقولات، ويتعبدون هاتيك المعبودات من دون الله، وقد حُذف للإيجاز وللتعميم(١)؛ بخاصة لوجود قرينة تشير إلى ذلك، وهي قرينة العبارة، وقرينة السياق كما مر في مطلب (التعريض).

وقد تكرر الأمر بـ(وقل) في القرآن مقترنًا بالواو في واحد وعشرين موضعًا، منها ستة مواضع في هذه السورة(٢)، وستة المواضع في هذه السورة أتت خمسة منها خطابًا للنبي ﷺ ولأمته، وواحدة خاصة بالنبي ﷺ وهي ﴿وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ (٣) (آية:٥٣).

والأمر في حقيقته طلب على وجه الاستعلاء، وهذا هو الأصل فيه، وقد يُوظف في سياقات تخرج عن هذا الأصل، فتبتعد عنه، أو تكون مجاورة له، فتتولد منه دلالات إضافية، تحمل طاقات دلالية، يشي بها السياق والمقام، كما في هذه الآية، ومن ذلك:

أن هذا الفعل في هذه الآية ليس أمرًا خالصًا على الحقيقة، وهو طلب قول الحمد فحسب، وإنما الأمر بالتلفظ بالحمد من ناحية، ومن ناحية أخرى طلب الحمد أنه لم يجعلك ممن يقولون ذلك الاعتقاد، وعلمك ما لم تعلم، يقول

(١) ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح :٢/٥.

(٢) تكرر هذا الفعل في القرآن ٣٣٢ مرة، وجاء دون أن يسبقه أي حرف في مئتين وثلاثة وتسعين موضعًا، وجاء وقد سبقه حرف الفاء في ثمانية عشر موضعًا. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٣هـ: ٥٧١-٧٥٦

(٣) ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ: ١٢٢/٥.

أبـو العاليـة: معنـاه، وَقُـلِ الحمـد لِلَّـهِ الـذي لـم يجعلنـي ممـن يتخـذ لـه ولـدًا، ولم يجعلني ممن يقول له شريك في الملك، وله وليّ من الذُّل[١]، فيكون المقام هنا يميل إلى أن يكون مقام حمدٍ لا مقام تنزيه.

ومن الدلالات التي يخرج عنها الأمر عن أصل وضعه في هذه الآية أنه جاء للدلالة على الإرشاد؛ فالفعل (قل) يتضمن فعلًا إرشاديًا للنبي ﷺ ولأمته، ودلالتـه التأثيريـة هـي اسـتجابته ﷺ لهـذا الإرشـاد وامتثالـه ونقلـه إلـى أمتـه؛ فاستدعاء النبي ﷺ لكتبة الوحي لكتابة هذه الآية، ثم استماع الصحابة لها، وكذلك احتفاء النبي ﷺ بها وتسميتها (آية العز) وتعليمه إياها للأطفال، كل ذلك دليل على الغاية التأثرية لهذا الفعل.

ومن الدلالات التي تُستشف من هذا الأمر أن الدلالة الزمنية هنا تتطلب الدوام والاستمرار، فالأمر بالحمد والتكبير صالح للماضي؛ إذ أمر الله عباده بذكره والثناء عليه وتنزيهه منذ أول وحي نزل على النبي ﷺ. كما أنه متأكد في الحاضر، حاضر الوحي، ومستمر في المستقبل الدنيوي، وفي الآخرة، فـ"الحَمْدُ لِلَّهِ له تعلُّقٌ بالماضي وتعلُّقٌ بالمستقبلِ، أمّا تعلُّقُهُ بالماضِي فهو أنَّهُ يقعُ شُكْرًا على النِّعمِ المتقدِّمَةِ، وأمّا تعلُّقُهُ بالمستقبلِ فهو أنَّهُ يُوجبُ تجدُّدَ النِّعمِ في الزَّمانِ المستقبلِ؛ لقوله تعالى :﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾]إبراهيم: ٧ [٢]؛ لذلك فهذه الكلمة (الحمد لله) هي" أوَّلُ كلمةٍ ذكرها أبُونا آدمُ هو قوله: الحَمْدُ لِلَّهِ، وآخِرُ كلمةٍ يذكرها أهل الجنَّةِ هو قولنا: الحَمْدُ لِلَّهِ ... ففاتحةُ العالَمِ مبنيَّةٌ على الحَمْدِ وخاتمتُهُ مبنيَّةٌ على الحَمْدِ"[٣]، ويتفرع من هذه الدلالة الزمنية استمرارها للدلالة

(١) السمرقندي، بحر العلوم، تحقيق: محمد علي معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ:٢/٢٧٨.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ : ١/٢٢٨.

(٣) الألوسي، روح المعاني: ١٢/٢٣١.

على التعريض بالذين لا ينزهون الله، ولا يقدرونه حق قدره، فلهم التوبيخ والتقريع في الماضي والحاضر والمستقبل.

ومن الدلالات أنها تدل على صدق النبي ﷺ في تأدية الرسالة وتبليغ الوحي، فبمقدوره أن يبلغ عن الله مقول القول دون صيغة الأمر وفعلها، ولكنه ﷺ أبى إلا أن يبلغ من الوحي كما سمعه دون إنقاص أو زيادة.

دلالة تكرار (وقل) في السورة:

فعل الأمر هذا في آية العز يحيل إلى كل لفظ (قل) في السورة نفسها؛ إذ يُلحظ أن الأمر جاء مكررًا في مواضع مختلفة من السورة، بلغت (ست مرات) – كما سبق الإشارة إليه– فهو من أكثر أساليب الإنشاء الطلبي تكرارًا فيها، ومن كمال البيان القرآني أن هذه الأوامر متناسقة مع مثيلاتها في المناسبة وفي الارتباط المعنوي، سواء الأوامر التي تتعلق بالأخلاق، أو التعامل الأسري، أو الاجتماعي أو الأوامر التي تركز على الجانب الاعتقادي، كل ذلك يجمعها أنها من لدن حكيم خبير، وفيها صلاح للمأمورين، وهذا مقصد من مقاصد السورة، أسهم أسلوب الأمر في بيانه خير بيان، وأتم معناه على خير وجه من النظم البديع. وهذا يمثل روعة من روائع المناسبة بين ألفاظ الأمر في الآيات التي جاءت متناغمة ومتلاحمة فيما بينها، وتتمدد هذه الإحالة لفعل الأمر لتشمل كل لفظ (قل) في القرآن، مستحضرًا المتلقي عظمة مُصدر هذا الأمر، متأملًا تنوع المقول له، مستغرقًا في فهم جملة القول، وما تحتويه هذه الأوامر من تعظيم لله ﷻ وما تنطوي عليه من أحكام وتشريعات.

ب– الأمر الثاني (وكبره تكبيرًا)، وجاء معطوفًا على الأمر الأول؛ لدلالةٍ تتسق وغاية النظم، وهي أن عطفه عليه لدلالة على ما تقدم من أنه ﷻ هو الكامل وما عداه ناقص، لذا استحق التكبير، فهو عطف فيه توكيد وتقوية للأمر الأول، الأمر بالحمد، ثم كان الأمر بالتكبير.

وكما في الفعل الأول (قل) ففعل (كبره) فعل متعدٍ لمفعول واحد؛ أي له

متعلق بـه، وهو المفعول بـه، الضـمير المتصـل (الهـاء)، وهـو منصـوب مقول القول، وله أيضًا بنية ظاهرة، وبنية عميقة، تتجلى من خلال المقول له غير الظاهر، وهو الضمير المستتر فيها وجوبًا (أنت)، والمخاطب النبي ﷺ، ومَن يصح مخاطبته بهذا الأمر؛ ولذا فإن من الدلالات التي يخرج عنها الأمر عن أصل وضعه أنه جاء للدلالة على الإرشاد، فهو يتضمن فعلًا إرشاديًا للنبي ﷺ ولأمته، ودلالته التأثيرية هي استجابته ﷺ لهذا الإرشاد، وامتثاله ونقله إلى أمته، وسعيهم لفعله باللسان والقلب والجوارح، وقد حدث لأصل الفعل (كَبَر) تقوية وترقٍّ من المعنى الأول إلى معنى المبالغة؛ فأصله ثلاثي، وقد ترقّى إلى الفعل الرباعي (كَبّر) [١].

ثانيًا: الفصل والوصل: عطف (وقل) على (وكبرّه).

يعدُّ هذا المبحث من أهم علوم البلاغة، يقول عبد القاهر الجرجاني عن أهميته " وقد بلغَ من قوة الأمر في ذلك أنَّهم جعلوهُ حَدّاً للبلاغة، فقد جاء عَنْ بعضهم أنه سُئِل عنها فقال" :مَعْرِفَةُ الفَصلِ منَ الوصلِ" ذاك لغموضِه ودقِة مَسْلكِه، وأنَّه لا يَكْمُلُ لإحرازِ الفضيلة فيه أحدٌ، إلاَّ كَمَلَ لسائِر معاني البلاغة"[٢]، وهو عطف جملة على أخرى بالواو دون سواها، والفصل ترك العطف بين الجملتين "واعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف بها والمجيء بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد الأخرى–من أسرار البلاغة–، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلّص، وإلاّ قوم طبعوا على البلاغة، وأتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من القوة في الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً

(١) وسيأتي مزيد من الإيضاح لذلك في مطلب (وزن الفعل المضعّف).

(٢) دلائل الإعجاز:٢/ ٢٢٢

للبلاغة"[١]، ولهذا الأسلوب البياني الرفيع عدد من الغايات البيانية؛ منها الإيجاز في إيضاح المعاني، والترابط النصي بين الجمل"وجملةُ الأمرِ أنها لا تجيءُ حتى يكون المعنى في هذه الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضامًّا له"[٢]، وهذا لا يتأتّى إلا في الخطاب عالي الرتبة، والنص القرآني هو الأعلى بلا ريب، لذا كان اختياره لمواضع الوصل والفصل بعناية تامة، تشير إلى كثير من المعاني الدقيقة، والإشارات الموحية، وآية العز قائمة على الوصل، ومن موجبات الوصل فيها كمال الاتصال؛ إذ اتفقتا إنشاء، وكانت بينهما مناسبة تامة، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما[٣].

وهنا مظهران من مظاهر بلاغة الوصل، الأول، بين آية العز وما قبلها، والثاني، بين أجزاء الآية نفسها.

فالمظهر الأول، الوصل في قوله ﷻ: (وقل الحمد) فقد عطف هذه الجملة على ما قبلها (ولا تجهر) والسرُّ البياني للوصل هو التوسط بين الكمالين[٤]، فبعد نهيه له عن الجهر بالدعاء بعد ذلك خصَّهُ – ﷺ – بالأمرِ بالتَّحميدِ، مع عدم وجود مانع من الوصل؛ فقد اتفقت الجملتان في الإنشائية لفظًا ومعنىً؛ فكلاهما طلبٌ، الأولى نهي، والثانية أمر، واتحدت المناسبة بينهما؛ وكذلك فالثانية مؤكدة للأولى توكيدًا معنويًا؛ إذ هما في سياق امتثال آداب الدعاء، ومقام اللهج بالحمد

(١) دلائل الإعجاز:٢/ ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق:٢/ ٢٢٥.

(٣) ينظر: توضيح هذا التقسيم، الإيضاح، القزويني: ١٢٧/٣

(٤) ينظر: المرجع السابق: ١٢٧/٣. ومعنى هذا الوصل (التوسط بين الكمالين) أي؛ كمال الاتصال وكمال الانقطاع؛ لأن بين الجملتين شيئًا من الاشتراك في المعنى، وشيئًا من كمال الانقطاع لوجود العطف بالواو المقتضي المغايرة. ينظر: إبراهيم التركي، تيسير علم المعاني، النشر العلمي والترجمة بجامعة القصيم، ١٤٣٤هـ: ١٦٦.

والتكبير لله ﷻ، وتعليمه كيفية ذلك، وقد تعددت موجبات هذا الوصل عند بعض المفسرين؛ فابن عاشور يرى أنه لما كان "النَّهيُ عن الجهرِ بالدُّعاءِ، أو قراءةِ الصَّلاة؛ سدًّا لذريعة زيادة تصْميمهم على الكفر أعْقبَ ذلك بأمرِهِ بإعلانِ التَّوحيدِ لقطع دابر توهم من توهموا أن الرحمان اسم لمسمى غير مسمى اسم الله"(١)، ويرى البقاعي أنه "بعد تخييرهم بالدعاء بأي اسم له؛ الذي معناهُ الإحاطةُ؛ واسْمُهُ – ﷺ – مُشْتَقٌّ منه؛ لاتّصافه به؛ حامدًا؛ ومَحْمُودًا؛ وبالتَّكبيرِ عن كُلّ ما يفهَمُهُ العباد من أسمائه الحسنى، أمره بعدم الجهر"(٢)، فلو تُرك الوصل في هذه الآية لم يكن بين الجملتين تناسب، فقد وصل بين جملتين، تتناسبان في أنهما مما يتعلق بأمر التحميد والتكبير، المتضمن التنزيه له ﷻ عما يقولون، فهذا التناسب هو شرط العطف بالواو، وهو ما يسمى بالجامع بين الجمل الموصولة بينها، فمع التغاير بين تلك الجمل إلا إنه بينها ارتباطًا وتكاملًا في المعنى، وهذا نوع من أنواع العطف بالواو(٣).

أما المظهر الثاني –الوصل فيما بين أجزاء آية العز نفسها– فبيانه البلاغي، أن النظم الأعلى وصل بينهنّ لما فيها من كمال الاتصال، مع عدم وجود مانع من الوصل، فقد اتفقت الجمل في الخبرية لفظًا ومعنىً، واتحدت المناسبة بينها؛ وهي بيان سبب استحقاقه ﷻ للحمد والتكبير والتعظيم، وكل جملة معطوفة تؤكد الجملة التي قبلها توكيدًا معنويًا، وأنها صلة للموصول (الذي)، فهي بمثابة التعليل والتفسير لسبب استحقاقه ﷻ للحمد؛ لذا وجب الوصل بينهما.

ومن المظهر الثاني، أنه وصل الأمر (وكبره تكبيرا) بالأمر الأول (وقل الحمد لله) لدلالةٍ تتسق وغاية النظم، وهي الدلالة على ما تقدم أنه ﷻ هو الكامل

(١) التحرير والتنوير:٢٣٩/١٥.

(٢) نظم الدرر: ٥٤٠/١١.

(٣) ينظر: الزركشي، البرهان:١٠٦/٤.

وما عداه ناقص، لذا استحق التكبير، فهو ترتيب من خلال العطف، فيه توكيد وتقوية للأمر الأول، وهو الأمر بالحمد، ثم كان الأمر بالتكبير؛ ذلك أنه إذا كان المُخبَر عنه في الجملتين واحدًا فإنه يزداد معنى الجمع في (الواو) قوة وظهورًا(١).

وبذلك يستبين ما في أسلوب الوصل من ترتيب المعاني وتبويبها، وتنظيم لتراكيب السياق، وبهذا الأسلوب مالت نفس المتلقي إلى التأمل في بيان هذه الآية، وانساق عقله إلى تتبع مساره حتى فقه معناه ومعارجه المتتابعة الموصلة إلى حمد الله وتكبيره ﷻ ؛ففي ذلك كله استدعاء المخاطب إلى فضل تأمل، وزيادة فهم.

ثالثًا: من التراكيب، النفي.

جاء في مقاييس اللغة أن مادة (نفي) "تدل على تعرية شيء من شيء وإبعاده عنه(٢).

ويُعْلي الزركشي من شأنه فيقول " النفي هو شطر الكلام؛ لأن الكلام إما إثبات أو نفي"(٣).

والنفي من الناحية التداولية البلاغية، أسلوب لغوي تحدده مناسبات القول، وهو أسلوب نقض وإنكار، يُستخدم لدفع ما يتردد في ذهن المخاطَب، فينبغي إرسال النفي مطابقًا لما يلاحظه المتكلم من أحاسيس ساورت ذهن المخاطَب خطأ؛ مما اقتضاه أن يسعى لإزالة ذلك بأسلوب نفي بإحدى طرائقه

(١) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز: ٢٢٦.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، درا الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ٤٥٦/٥.

(٣) البرهان: ٢٧٥/٢.

المتنوعة الاستعمال[١].

وقد جاء النفي في هذه الآية متتابعًا من خلال الأداة (لم) التي تختص بالدخول على المضارع، وتقلب معناه إلى المضي[٢]، وقد وظف البيان القرآني هذا الحرف دون سواه من مثل (لن، لا، ما) لدلالة مقصودة؛ وهي ما تتمتع به (لم) من الدلالة الزمنية المختصة؛ قلب زمن المضارع إلى الماضي، الذي لا يتحقق أبدًا، فسبحانه وتعالى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك، ولم يكن له ولي من الذل في الماضي المستمر الذي لا يتحقق أبدًا، وفي المستقبل، ولو جاء النفي بـ(لا) لكان النفي مقتصرًا على الحال والحاضر [٣]، وربما يكون له ﷻ ولد وشريك وولي في المستقبل، أما النفي بـ(ما) فهو مختص بالماضي، بخلاف (لم) المناسبة لنفي كل الأزمنة؛ ولذا كان سر اختيار (لم) في قوله ﷻ (ولم يتخذ ولداً) و(ما) في قوله ﷻ(ما اتخذ الله من ولد)؛ لأن (لم) هنا –في آية العز– في مقام طلب الذكر والتشريف به للثواب، وأما (ما) فهي في مقام التعليم[٤].

و(لم) كأنها مأخوذة من (لا) و(ما)؛ لأن (لم) نفي للاستقبال لفظًا، فأخذ اللام من (لا) التي هي لنفي الأمر في المستقبل، والميم من (ما) التي هي لنفي الأمر في الماضي والحال، والجمع بينهما إشارة إلى أنّ في (لم) المستقبل والماضي[٥]، فمجيء النفي بـ(لم)؛ لأنها تقلب زمن المضارع إلى الماضي فتفيد

(١) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م. :٢٤٤.

(٢) المبرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت: ١/ ٤٦–٤٧

(٣) ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ١٣٦٨هـ: ٢٦١/١

(٤) ينظر: الزركشي، البرهان:٣٧٩/٢.

(٥) ينظر: المرجع السابق: ٣٧٩/٢.

انتفاء الفعل في الزمن الماضي، وتفيد تجدد ذلك في المنفي، الذي هو من خصائص الفعل المضارع، فيحصل معنيان: انتفاء مدلول الفعل بمادته، وتجدد الانتفاء بصيغته(١). وجاءت صياغة النفي عن طريق الماضي، وليس عن طريق المستقبل، فلم يقل (لن يتخذ، لن يكون...) لأن ذلك أتى متساوقًا وقولهم الباطل، فالمقصود تكذيب قولهم، وهم إنما قالوا ذلك في الماضي، فانبنى الكلام وفق إفكهم(٢).

والنفي الأول في الآية: (لم يتخذ ولدًا) نفي الاتخاذ، ولازمه أن ألا يكون له ولد من صلبه من باب أولى، فيكون هذا النفي من نفي الشيء بنفي لازمه(٣)، ويبسط الرازي القول في هذا المعنى، فيقول "لِمَ قال ههنا: (لَمْ يَلِدْ) وقال في سورة بني إسرائيل (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً). الجواب: أن الولد يكون على وجهين: أحدهما: أن يتولد منه مثله، وهذا هو الولد الحقيقي. والثاني: أن ألا يكون متولدًا منه، ولكنه يتخذه ولدًا، ويسميه هذا الاسم، وإن لم يكن ولدًا له في الحقيقة. والنصارى فريقان: منهم من قال: عيسى ولد الله حقيقة، ومنهم من قال: إن الله اتخذه ولدًا تشريفًا له، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً له، فقوله: (لَمْ يَلِدْ) فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة، وقوله:(لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) إشارة إلى نفي القسم الثاني(٤).

ومن دقة البيان القرآني في تحديد المعاني أن نفي اتخاذ الولد أتى نفيًا مطلقًا، أما نفي الشريك ونفي الولي فقد جاءا مقيدين، والقيد من خلال الجار والمجرور. فالنفي في (في الملك) رغم أنه لا وجود لشريك مطلقًا، لا في الملك

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٣١٦/١٤.

(٢) ينظر: الرازي، مفاتح الغيب: ٤١٩/٢١.

(٣) علي المدني، أنوار الربيع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٩هـ: ٣٦٤/٤

(٤) مفاتح الغيب: ٥٦/٣٢.

ولا في التدبير ولا في الوجود، ولا في الخلق، مع ذلك فإن القيد منعقد على أكمل الوجوه المتحققة واقعًا، أو أن الملك يشملها جميعًا، فجاء النفي مقيدًا، والمراد نفيه مطلقًا؛ مبالغةً في النفي، وتأكيدًا له[١]، وكان من أساليب العرب التي يقصدون بها المبالغة في النفي وتأكيده أن يرد نفي الشيء مقيدًا، ويراد نفيه مطلقًا غير مخصص لذلك القيد [٢]، فالمقيد في الجملة هو محط الفائدة، وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني قاعدة من قواعد النفي المقيد، وهي أن "من حكم النفي إذا دخل على كلام، ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه أن يتجه إلى ذلك التقييد، وأن يقع له خصوصًا"[٣]، بيد أن هذه القاعدة لا تنطبق حرفيًا على النفي المقيد في النص القرآني، ومن ذلك ما البحث بصدده في قوله تعالى (شريك في الملك)؛ إذ اتّخاذ إلهٍ مع الله ﷻ شريكًا له في ملكه لا يمكن أن يكون، وقيد (في الملك) يؤكد ضِمْنًا عدم وجود شريك لله ﷻ في إلهيتّه أيضًا، وفي ذلك تحدٍ للمدّعين ذلك بأن يأتوا بدليل يثبت اعتقادهم الفاسد، وهذا التحدّي يتضمَّن تأكيد نفي وجود دليل يُثبت ادّعاءهم، مما يؤكد نفي وجود أيّ شريك لله ﷻ ، بينما يندرج ضمن تلك القاعدة الجرجانية القيد في قوله تعالى(من الذل)؛ إذ هو قيد مترتب على أنه "لمّا كان اتخاذ الولي قد يكون للانتصار والاعتزاز به والاحتماء من الذلّ، وقد يكون للتفضل والرحمة لمن والى من صالحيّ عباده كان النفي لمن ينتصر به من أجل المذلة، فلما كان مورد الولاية يحتمل هذين الوجهين فنفَى الجهةَ التي منها يتولد النقص، بخلاف الولد والشريك فإنهما نفيًا على الإطلاق" [٤].

(١) ينظر: المدني، أنوار الربيع: ٣٦٤/٤

(٢) ينظر: البرهان: ٣٩٦/٣

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٧٩.

(٤) ابن حيان، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ : ١٢٨/٧.

ومن خواص التركيب وأسرار الأساليب أن التقييد بأدواته يكون لزيادة الفائدة وتقويتها عند السامع، لما هو معروف أن الحكم كلما ازدادت قيوده ازداد إيضاحًا وتخصيصًا، وحينئذ تكون فائدته أتم وأكمل [١]، ففي هذا القيد: (من الذل) إفهام بأن له أولياء جاد عليهم بالتقريب، وجعلهم أنصارًا لدينه رحمة منه لهم لا احتياجًا منه إليهم [٢]، وبذلك يستشعر المؤمن من خلال هذا النفي المتتابع قوة البيان القرآني في نفي تلك الصفات عنه ﷻ. إن هذا النفي المتكرر في آية العز كله قد جاء لأجل ثبوت الحمد له ﷻ، فيكون جودة السبك، واكتمال اتساق النظم المؤدي إلى ترابط المعنى تأتّى من خلال تعاضد الأمر والنفي في تمجيد ذي العزة والجلال.

رابعًا: التقديم والتأخير.

التقديم والتأخير من أكمل الأساليب البيانية في القرآن الكريم، وهو من أكثرها شيوعا فيه، يصف عبد القاهر الجرجاني –رحمه الله– فوائده البيانية بقوله " هذا باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان" [٣]. وأشار إلى جوهر هذا التقديم فقال" واعلم أن لم تجدهم اعتمدوا فيه شيئًا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه

(١) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،١٤٣١هـ /٢٠١٠: ١٤١.

(٢) ينظر: البقاعي، نظم الدرر: ١١/ ٥٤١.

(٣) دلائل الإعجاز: ١٠٦.

أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهمانِهم ويعنيانِهم "[١].

وقد أخذ هذا المبحث من المهتمين بعلوم القرآن بنظرة أوسع ومادة أغزر، فهو أحد أساليب البلاغة، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق[٢]. وفي آية العز نلحظ تقديم المسند إليه وتأخير المسند، وتقديم المسند وتأخير المسند إليه.

تقديم المسند إليه: يشير السكاكي لأهم الأغراض البلاغية التي تنشأ من تقديمه على المسند، ويكون ذلك "متى كان ذكره أهم، يقع باعتبارات مختلفة: إما لأن أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه ... وإما لأنه متضمن للاستفهام ... وإما لتضمنه ضمير الشأن والقصة ... وإما لأن في تقديمه تشويقًا للسامع إلى الخبر ليتمكن في ذهنه إذا أورده" [٣]، فتقديمه لحاجة سياقية يقضيها المقام، وفي آية العز يتجلى تقديم الحمد على لفظ الجلالة، ومن الأغراض البلاغية البيانية التي تنشأ من هذا التقديم ما أشار إليه السكاكي من أن في تقديمه تشويقًا للسامع إلى الخبر؛ ليتمكن في ذهنه إذا أورده، وكذلك لاقتضاء المقام ذلك التقديم. وإيضاح ذلك فيما يلي:

قد قدم المسند إليه (الحمد) على المسند المجرور (لله)، مع أنه يشير إلى اسم الجلالة عيانًا، وأنّ ذِكْر اسم الله أعلى رتبة، وحقه التقديم؛ بيد أنه ﷻ " قدّم الحمد على الاسم الكريم لاقتضاء المقام مزيد اهتمام به، لكونه بصدد صدور مدلوله، فهو نصب العين ... والأهمية تقتضي التقديم إلا أن المقتضي العارض بحسب المقام أقوى عند المتكلم"[٤]، فسياق الكلام مسبوق بفعل القول، وهو يتطلب مقولا له، والغاية في السياق هو الحمد، فقدّمه لتكون عين المتلقي،

(١) المرجع السابق: ١٠٧.

(٢) ينظر: الزركشي، البرهان: ٢٣٣/٣.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩٤.

(٤) الألوسي، روح المعاني: ٨٠/١.

أو أذن السماع تتلقفانه أولًا؛ فالحمد على وحدانيته بانتفاء اتخاذ الولد، وإنفراده ﷻ بالملك، وتنزّهه عن الولي الناصر، وهذا فيه منّة وتفضل من الله، وتعريف به لخلقه، وبهذا العلم عنه ﷻ نجاتهم من النار، ودخولهم الجنة، فكان الابتداء بمقول القول مما يقتضيه المقام، فقدّمه لأهميته، وهي أهمية عارضة؛ لأن ذِكْر الله أصله التقديم. وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى الحكمة البلاغية من ترتيب ذكر شبهة نفي الولد، ثم ذكْر شبهة نفي الشريك، فقال "وإنَّما قُدّمَ نَفْيُ الولدِ على نَفْيِ الشَّريك مع أنَّ أكثر المشركين عبدةُ أصنامٍ لا عبدةُ الملائكة نظرًا إلى أنَّ شبهة عبدةِ الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام؛ لأنَّ الملائكة غيرُ مُشاهدِينَ فليستْ دلائلُ الحدوثِ باديةً عليهم كالأصنامِ، ولأنَّ الذين زعموهم بناتِ اللَّه أقربُ للتَّمْويه من الذين زعموا الحجارةَ شُركاءَ للَّه"[1]، ومن المستقر بيانيًا أن "الأهمية العارضة تقدم على الأهمية الأصلية لاقتضاء المقام والحال، والبلاغة هي المطالبة لمقتضى الحال"[2]؛ ومن هنا نشأت بلاغة هذا التقديم للمسند إليه (الحمد)، وهي تقوية الحكم لهذا العارض؛ تبعًا لمقتضى المقام، وقد تأكدت هذه التقوية من خلال وسيلتين:

وسلية معنوية، ووسيلة لفظية، أمّا الوسيلة المعنوية فظاهرة من تقديم الحمد، الذي أسهم في تهيئة السامع إلى تلقي الخبر، ذلك "أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلًا، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأنّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام "[3] ، وينبعث من ذلك التشوق لمعرفة ما بعده، وهذا التشوق والتطلع من أهم السياقات التي تنبعث من تقديم المسند إليه.

---

(١) التحرير والتنوير: ١١٤/١٨ .

(٢) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير:١/ ١٤٨.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز:١٣٢.

أما الوسيلة اللفظية فأتت من طريقين: الأول، أنّ جملة (الحمد لله) أُسند فيها الحمد عن طريق الجملة الاسمية بإسناد الخبر إلى المبتدأ، والطريقة الأخرى، أن الجار والمجرور في المسند متعلق بالحمد، فيفيد معنى التخصيص، كما تفيد اللام قوة تعلق العامل بالمفعول، وهذا "يقتضي تخْصِيصهُ تعالى بالحمد، أيْ قصرِ جِنْسِ الحمد عليه تعالى؛ لأنَّه أعظمُ مُستحِقّ لأنْ يُحْمَد، فالتَّخصيصُ ادّعائيٌّ بادّعاء أنَّ دواعي حَمْدِ غير اللَّه تعالى في جانب دواعي حَمْدِ اللَّه بمنزلة العدم[١]. وأكدت جملة صلة الموصول، ذات الصلات الثلاثة هذا التخصيص بالقصر، (الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل).

ومن مظاهر التقديم:

– تقديم خبر يكن على اسمها في قوله ﷻ (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)، هنا جاز توسط الخبر؛ لأنه لم يمنع مانع من التوسط أو موجب، مثل أن يتصل ضمير باسمها يستوجب تقديم الخبر[٢]، هذا من حيث الصنعة النحوية، أما من حيث الصنعة البيانية البلاغية فإن لتقديم المسند (له) على المسند إليه (شريك، ولي) فائدة تؤكد المعنى العام للآية، وهو الأمر بحمد الله؛ لأنه المتصف بتلك الصفات وحده، فمن أجل هذا المعنى قدّم النظم ما يخص المستحق للحمد، وهو الجار والمجرور العائدة لله ﷻ ، فحقق ثلاث فوائد بيانية:

أن في التقديم للجار والمجرور تخصيصًا وقصرًا لنفي الشريك والولي مع

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: ١٣٨/١٥

(٢) ينظر: ابن مالك، شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد، محمد المختون، دار هجر، القاهرة، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م:٣/ ٥٤.

الله، أما غيره من المخلوقين أو المخلوقات فهم ناقصون وعاجزون وضعفاء لا يستغنون عن الشراكة والولاية، فعندما كان السياق سياق نفي دال على التخصيص والقصر قدم المسند.

والفائدة الثانية متفرعة من الأولى، فعند إقرار التخصيص والقصر في ذات المتلقي، نتج عنه تمكين الخبر في ذهنه، متلذذًا بذكر هذا المُقدَّم ﷻ.

والفائدة الثالثة: خاصة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ إذ يثير هذا التقديم ذهنه، وتشوّقَ سمعه لمعرفة مضمون المخبر عنه؛ وهو النفي وكنهه.

رابعًا: التقسيم، وهو من الفنون البديعية المعنوية.

وقد عرفه أبو هلال العسكري بقوله: "التقسيم الصحيح: أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه"(١)، وقوام هذا الفن البديعي التبويب والتنظيم، وهذا صنيع تميل إليه نفس المتلقي، وينساق عقله إلى تتبع مساره خطوة خطوة حتى يتشرب المراد من جميع جوانبه.

ويوافق الزركشيُّ العسكري فيقول: "هو استيفاء المتكلم أقسام الشيء، بحيث لا يغادر شيئًا، وهو آلة الحصر، ومظنة الإحاطة بالشيء"(٢)، ويقرر العلوي هذه المكانة "فله موقع في الفصاحة لا يمكن جحده و لا يسع إنكاره"(٣) ؛ ولذا وظّفه الذكر الحكيم كثيرًا في تأصيل عبودية الله وانفراده بها، وفي

(١) أبوهلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي البجاوي ومحمد إبراهيم، دار عيسى الحلبي، ١٣٧١هـ-١٩٥٢ :٣٤١

(٢) البرهان: ٤٧١/٣. وله قسيم آخر، وهو ذكر أحوال الشيء مضافًا إلى كل حالة ما يلائمها ويليق بها، وبهذا القسم عرف السكاكي التقسيم: فقال "هو أن تذكر شيئًا ذا جزأين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك" مفتاح العلوم: ٢٠١، بيد أن أشرفهما هو القسم الأول لورود أمثلة متعددة له في الذكر الحكيم.

(٣) الطراز: ٦٩/٣ .

تنزيهه ﷻ، وفي نقض دعاوى الجاحدين.

وآية العز قد استوفت أهم موجبات حمده ﷻ، وكذلك شملت أكثر الشُبه التي يقول بها المشركون واليهود والنصارى وغيرهم في حقه ﷻ، فالآيةُ على ما قال الطّيبي، هي مِن التَّقسيم الحاصر(١).

ويشرح الألوسي قول الطيبي، فيقول: "لأنَّ المانعَ من إيتاءِ النّعمِ إمّا فوقَهُ سبحانه وتعالى أو دونه أو مثله عَزَّ وجَلَّ، فبنى الكلام على التَّرَقّي وبدأ من الأدْوَنِ وخَتمَ بالأعلى فَنَفى الكلَّ فمنهُ ولدُ الكثرة وله القِلُّ والدّقُّ والجُلُّ تعالى كبرياؤهُ وعظُمَتْ نعماؤهُ"(٢)، والألوسي رأى بيان بديع التقسيم من رؤية استحقاق الله للحمد، أمّا ابن حيان فقد أشار إلى بديع التقسيم من رؤية نفي النقص عن الله، فقال "ونفى أولاً الولد خصوصًا ثم نفى الشريك في ملكه، وهو أعم من أن ينسب إليه ولد فيشركه أو غيره، ولما نفى الولد ونفى الشريك نفى الولي وهو الناصر، وهو أعم من أن يكون ولدًا أو شريكًا أو غير شريك(٣)، أمّا الطاهر بن عاشور فقد أشار إلى الحكمة البلاغية من ترتيب ذكر شبهة نفي الولد، ثم ذكر شبهة نفي الشريك، فقال "وإنَّما قُدّمَ نَفْيُ الولدِ على نَفْيِ الشَّريك مع أنَّ أكثر المشركين عبدةُ أصنامٍ لا عبدةُ الملائكة نظرًا إلى أنَّ شبهة عبدةِ الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام؛ لأنَّ الملائكة غيرُ مُشاهدِينَ فليستْ دلائلُ الحدوثِ باديةً عليهم كالأصنامِ، ولأنَّ الذين زعموهم بناتِ اللَّه أقربُ للتَّمْويه من الذين زعموا الحجارةَ شُركاءَ للَّه"(٤).

---

(١) ينظر: الطيبي، فتح الغيب، طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م: ٤٠٠.

(٢) روح المعاني: ١٨٤/٨.

(٣) البحر المحيط : ١٢٨/٧.

(٤) التحرير والتنوير: ١١٤/١٨.

فهذا التقسيم داخل في بديع التعميم بعد التخصيص، وذكر العام بعد الخاص[1]، وتنشأ عن ذلك فائدة أخرى، وهي زيادة عناية بالخاص (اتخاذ الولد، والشريك)؛ لذكره مرتين: مرة وحده، ومرة مندرجًا في العام.

ويتفرع عن ذلك محسن بديع مبدع، وهو (حسن النسق)، وهو أن يُؤتى بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات تلاحمًا سليمًا مستحسنًا، فإذا أفردت كل جملة منه قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها[2]. وآية العز اشتملت على موجبات حمده ﷻ من خلال هذا الأسلوب البديعي؛ فقد شملت كل المنفيات مع الله، معطوفة بعضها على بعض، في تلاحم وانسجام فريد، وعند استقلال كل منفيٍّ وحده في سور أخرى تقوم كل جملة للنفي بنفسها، ويستقل معناها بلفظها؛ ذلك أنه في غير هذه الآية من الآيات الأخرى لم تأت على هذا التفصيل، وإنما في غيرها من سور القرآن أتت في نفي الولد والشريك كما في الفرقان، والأكثر في الآيات الأخرى نفي الولد فحسب.

وبهذا استبان البعد البياني –التقسيم وحسن النسق– لهذين الأسلوبين في هذه الآية؛ حيث إيضاح المعنى وتتابعه حتى استيفاء المعنى من جميع أطرافه، من خلال تجزئة المعنى المراد التأكيد عليه، وهو استحقاقه ﷻ للحمد والتمجيد، تجزئته إلى أجزاء موصولة، تتكامل والسياق وتتجانس معه، مع ما يتمتع به كل جزء من بديع البيان على حدة، ومع ما خُتمت به الآية من جميل الإيقاع الصوتي.

(٢) ينظر: الزركشي، البرهان: ٢/٢٢٤.

(٣) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (د.ت): ٣/٤٢٥.

المطلب الثالث: الألفاظ.

أولًا: من بلاغة الألفاظ في الآية (التعريف والتنكير).

وهما من موضوعات علم المعاني التي أوردهما السكاكي في القسم الثالث من كتابه (المفتاح) في حديثه عن (الإسناد، وبيان أحوال المسند إليه والمسند) [(١)]، ونبدأ بالتعريف؛ لأنه الأصل، ولأن المقصود الحكم على شيء معين عند السامع، فتعريف المسند إليه لتكون الفائدة أتم[(٢)].

ونبدأ بالقسم الأول (التعريف).

- بلاغة التعريف في آية العز متجلية في (الحمد، الملك، الذل) من خلال تعريف الكلمة بـ(ال) التعريف، وقد تعددت البواعث البلاغية لاختيار التعريف دون التنكير:

أ- (الحمد) ذكر القزويني أن بلاغة أسلوب (ال) بين العهدية أو الجنسية[(٣)]، ولدخولها عليه عدد من الوقفات:

١- (ال) في (الحمد الله) لاستغراق الجنس، وعليه جمْع من المفسرين، يقول القرطبي "الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا"[(٤)]. وقد حقق تعريف الحمد عددًا من الدلالات البلاغية، من أهمها:

– أنه حقق معنى القصر؛ لأنه أسهم في تعريف الطرفين.

– أنه يتأكد في التعريف باللام في الحمد أنه للمعرفة والشهرة التي لاينكرهما

(١) ينظر: مفتاح العلوم :١٧٤

(٢) ينظر: القزويني، الإيضاح: ٩/٢

(٣) الإيضاح: ٩٤/١

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٥/١.

أحد، ولا يشك فيهما شاك بأنه هو المستحق وحده للحمد والتمجيد.

– أنها تدل على الاختصاص اللّائق بالله ﷻ والملك والقدرة.

ويستفيض الرازي مبينًا ذلك فيقول –رحمه الله– "الحمد للَّه يحتمل هذه الوجوه الثَّلاثة، فإنْ حملته على الاختصاص اللّائق فمن المعلوم أنَّه لا يليق الحمد إلّا به لغاية جلاله وكثرة فضْله وإحسانه، وإنْ حملته على الملك فمعلوم أنَّه تعالى مالكٌ للكل، فوجب أنْ يملك منهم كونهم مشتغلين بحمده...والواجب لذاتهِ مستوْلٍ عَلى الممكنِ لذاتهِ، فالحمدُ للَّه بِمعنى أنَّ الحمدَ لا يليقُ إلّا به، وبمعنى أنَّ الحمد ملكه وملَكَهُ[1].

–ومن ذلك أن دخول الألف واللام عليها أبلغ من تجرده منهما، مثل قولنا (حمداً لله)؛ لأن في دخول الألف واللام عليها وبه يكون تعريفه في ذلك معنى خاصًا لا يؤديه تجرده منهما "وذلك أن دخولهما في الحمد منبئ على أن معناه: جميع المحامد والشكر الكامل لله. ولو أُسقطتا منه لما دلّ إلا على أن حَمْدَ قائلِ ذلك لله، دون المحامد كلها [2].

٢– تعريف (الحمد) هي مقول القول، وهو جملة إسمية، وفيها من بديع اللفظ، وعميق المعنى ما فيها، ومن ذلك:

–أنها أبلغ دلالة على المراد من الجملة الفعلية، مثل قولنا (أحمد الله) لوجوه ذكرها الرازي:

أَحَدُها: أَنَّهُ لَوْ قالَ: أَحْمَدُ اللَّهَ، أفادَ ذلك كون ذلك القائل قادرًا على حَمْده، أمّا لما قال (الحَمْدُ لِلَّهِ) فقد أفاد ذلك أنَّه كان محمودًا قبل حَمْدِ الحامدين وقبل شكرِ الشاكِرين...فهو تعالى محمودٌ من الأزل إلى الأبد،

(١) مفاتح الغيب: ٧٦/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤٥/١.

وثانيها: أنَّ قولنا الحمدُ للَّه، معناه أنَّ الحمدَ والثَّناءَ حقٌّ للَّهِ ومِلْكُهُ، فإنَّه تعالى هو المستحقُّ للحمدِ بسبب كثرةِ أياديه وأنواعِ آلائه على العبادِ... ولو قالَ: أَحْمَدُ اللَّهَ، لَمْ يدُلَّ ذلك على كونه مُسْتَحِقًّا للحمدِ لذاته، ومعلومٌ أنَّ اللَّفظ الدّالَّ على كونه مُسْتَحِقًّا للحَمْدِ أوْلى من اللَّفْظِ الدّالِّ عَلى أنَّ شَخْصًا واحدًا حمده، وثالثها: أنَّه لو قال: أحمدُ اللَّهَ لكان قد حمد، لكن لا حمدًا يليقُ به، وأمّا إذا قال: الحمدُ للَّه، فكأنَّه قال: من أنا حتى أحمده؟ لكنَّه محمودٌ بجميعِ حمدِ الحامدين. ورابعها: أنَّ الحمْدَ عبارةٌ عن صفة القلب، وهي اعتقاد كون ذلك المحمود مُتفضّلًا مُنعمًا مُستحِقًّا للتَّعظيم والإجلالِ، فإذا تلفَّظَ الإنسان بقوله: أحمدُ اللَّهَ مع أنَّه كان قلبُهُ غافلًا عن معنى التَّعظيمِ اللّائقِ بجلالِ اللَّهِ كان كاذبًا؛ لأنَّه أخبر عن نفسه بكونه حامدًا مع أنَّهُ ليس كذلك، أمّا إذا قال: الحمدُ للَّهِ، سواءٌ كان غافلًا أو مُستَحضرًا لمعنى التَّعظيم فإنَّه يكون صادقًا؛ لأنَّ معناهُ أنَّ الحمدَ حقٌّ للَّهِ وملْكُهُ"[١].

٣- هي مقول القول أيضًا، فأصل المعنى أنها مفعول به، وحقها النصب، ولكن العدول إلى الرفع على الابتداء، وإظهار حركة الرفع على آخر الكلمة للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. وينقل القرطبي إجماع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر[٢]، وسبيل الخبر أن يفيد، فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل (الحمدُ لله) بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمداً. إلا أن الذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه، ومن جميع الخلق لله، والذي ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله[٣]. ويؤكد الألوسي على أحقية الحمد بالرفع،

(١) مفاتح الغيب: ٧٩/١.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤٦/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٤٥/١.

وأنها أرفع القراءات لدلالة الجملة الإسمية على الثبوت والدوام بقرينة المقام[١]، فالعدول عن النصب هنا إلى الرفع ليتأتّى للعلماء الدلالة على الدوام والثبات بمصير الجملة الاسمية، والدلالةُ على العموم المستفاد في المقام من (ال) الجنسية، والدلالةُ على الاهتمام المستفاد من التقديم[٢]؛ فقد أبان أن قوله (الحمدُ لله) أبلغ من (الحمدُ لله) بالنصب، وأنَّ (الحمدَ لله) بالنصب والتعريف أبلغ من (حمداً لله) بالتنكير.

ب: الملك، هو الحق الدائم لله، وهو ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، قال تعالى ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ [٣]، ولذا قيل في (ال) الملك إنها تشمل جميع الأفراد؛ أي لاستغراق الجنس؛ أي، الملك بيده وحده لاشريك له فيه، فضلًا أن يكون الملك لغيره ﷻ؛ ولذا سبقه نفي الولد، وبعد نفي الملك أتى نفي الولي، فتوسط نفي الملك بين كل من يدخل في معنى الشراكة في التصرف في الملك، فهو نفي خاص، توسط بين معنيين، لهما علاقة قوية بما قبله وبما بعده، فالله يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أن بيده الملك؛ أي، هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله؛ ولذا أيضًا قرن ﷻ استحقاقه له بالحمد، فقال في سورة التغابن: ﴿ له الملك وله الحمد﴾[٤].

ج:الذل، يدلّ على الخضوع والاستكانة واللين، فالذلّ ضدّ العزّ[٥]. و(ال) فيه لاستغراق الجنس، ولأن الذل ضد العز، وهذا هو المستقر في الأذهان، وهو

(١) ينظر: روح المعاني: ١٠٤/١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور:١٤٣/١.
(٣) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، باب (ملك):٧٧٥.
(٤) ينظر: المرجع السابق، باب (ملك):٧٧٥.
(٥) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة:٥٧/٢.

غاية التعريف؛ لذا قد تُحمل (ال) على أنها للعهد؛ فهو الذل المعهود في الأذهان بأنه ضد العز. ولمعنى (من) الداخلة على الذل ثلاثة أوجه، أحدُها: أنها صفةٌ لــ(وليّ) والتقدير: وليّ من أهل الذل، والمراد بهم: اليهود والنصارى؛ لأنهم أذلُّ الناسِ. والثاني: أنها تبعيضية. الثالث: أنها للتعليل، أي؛ مِنْ أجل الذل. (١). ويرى الألوسي أن الوجه الأول لا ينبغي أن يلتفت إليه، وأنه من عجيب ما قيل في توجيه معنى (من) في هذه الآية. وهو يشير بذلك إلى قول السمرقندي: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، أي من اليهود والنصارى، وهم أذل خليقة الله تعالى، يؤدون الجزية(٢). وهذا الرأي للألوسي محق فيه؛ لأن تقدير تلك الصفة بعيد.

د- الاسم الموصول (الذي)، وقد أتى هذا المعرف لغرض بياني بلاغي؛ من أجل الإيماء إلى وجه بناء الخبر، فـ(الذي) وصلتها دلا على ما يكون عليه الخبر، فمن هذه صفاته فإنه وحده المستحق للحمد والتعظيم(٣)، فهو للتنبيه على معنى ذي أهمية خاصة بسياق الآية الظاهر والمضمر، الصريح والتعريض، وهو الأمر بالحمد؛ لما بيّنه اسم الموصول وصلته الدالان على سبب الأمر بالحمد وبالتكبير(٤). كما أسهم هذا الاسم الموصول في دعم البناء التركيبي للآية، ومن ذلك: التماسك العضوي بين أجزاء الآية، التي هي صلة الموصول (الجمل المنفية)؛ إذ بهذه الصلة بسْطٌ في البيان، ومدّ لمعناه، وهذا نوع من أساليب الإطناب، زيادة في الكلام لفائدة متحققة.

هـ: ومن التعريف، الضمير في (وكبره) الذي لم يُعدل إليه إلا وقد عُلم لمن

(١) ينظر: الألوسي، روح المعاني: ١٨٤/٨.

(٢) ينظر: بحر العلوم: ٢٧٨/٢.

(٣) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم :١١٢

(٤) ينظر: محمد أبو موسى، خصائص التراكيب: ١٣٢.

يعود، وهو ﷻ، فعُبّر عنه بالضمير لا بالاسم الظاهر، والأصل أن يقول: (وكبر الله)، وفي هذا التعبير مظهر من مظاهر البيان القرآني، وهو الاختصار والإيجاز، ففيه غنية عن الإشارة إلى الاسم الظاهر، وفي ذلك ميزة أخرى، وهي الفخامة بشأن الضمير؛ حيث يُجْعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه، ويُكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من خصائصه[١].

القسم الثاني (التنكير).

-للتنكير معانٍ بلاغية متعددة، وأتت في البيان القرآني على أكمل وجه، ومن ذلك، للعموم أو للتهويل أوللتحقير[٢]، وقد أتت جميع النكرات في هذه الآية مسبوقة بنفي، ومن القواعد الأساسية في تفسير القرآن أنه: إذا وقعت النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط أو الاستفهام دلت على العموم[٣].

وألفاظ التنكير في آية العز: (ولدا، شريك، وليّ).

أ: لفظ (ولدًا).

أتى لفظ (ولدًا) في القرآن نكرة في سياق نفيه عن الله ﷻ ست مرات، وأتى ثلاث مرات في سياق الخبر. والولد بمعنى المولود، ولذا قال تعالى (لم يلد ولم يولد)، والولد يشمل الابن والابنة[٤].

ولأن المقام – في آية العز– مقام حمد في ظاهر السياق، وليس تنزيهًا فلم تسبق لفظ ولدًا (مِن) التي تنفي الجنس كله، جنس الولد، وتكون نصًا في العموم كما في آية المؤمنون (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) [٥].

(١) ينظر: الزركشي، البرهان: ٢٤/٤.

(٢) ينظر: القزويني، الإيضاح: ٣٦/٢.

(٣) ينظر: السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن: ١٦.

(٤) ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن: ٨٨٣.

(٥) ينظر: ابن عاشور: ١٣٨/١٥.

وقد نكّر الذكر الحكيم لفظ (ولدًا) متجافيًا عن التعريف له باللام؛ للدلالة على العموم، فالنكرة في سياق النفي تدل على العموم؛ لأنه لو عرفه بـ(ال) لأكسبه قيمة معنوية تحدده؛ لأنها ستكون (ال) هذه للعهدية، أي: الولد المعهود لدى النصارى، أو عزير عند اليهود، فكل طائفة تنسبه إلى المعهود لديها، كذلك أراد البيان القرآني أن يشمل النفي كل ولد يتجدد زعمه حتى قيام الساعة.

ب: لفظ (شريك). الشركة والمشاركة: خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدا؛ عينًا كان ذلك الشيء، أو معنى[١]، وأتت لفظ (شريك) في القرآن في ثلاثة مواضع كلها نكرة سبقها نفي، وجمعه شركاء. وشريك نكرة أتت في سياق النفي فيشمل جميع ما يمكن من أنواع الشَرِكَةِ في الملك، فيفيد العموم، فظاهره أنه رد على الثنوية فحسب، وهم المشركون في الربوبية، بيد أنه يجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية أيضًا، فيكون ردا على الوثنية[٢]، فجاء تنكير (شريك) ليشمل الشريك في الربوبية، وفي الألهية وفي الأسماء والصفات، وفي القضاء والقدر، وفي الحكم والأمر، وهذه الخمسة –التي يختص بها ﷻ– أتت مفصلة في القرآن الكريم، وعليها مداره، وهي أصول التسبيح والتحميد والتنزيه، فيكون التنكير في هذه الثلاثة (ولدا، شريك، وليّ) لعدم إرادة الحصر ولعدم العهدية[٣]، ويستصحب ذلك دلالة التحقير لهذه المنفيات في مقابل عظمته ﷻ[٤].

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، (شرك): ٤٥١.
(٢) ينظر: الألوسي، روح المعاني: ١٨٥/٨.
(٣) ينظر: القزويني، الإيضاح: ١٢٨/٢.
(٤) ينظر: المرجع السابق: ٣٦/٢.

ثانيًا: من بلاغة الألفاظ، وزن الفعل مضعف العين:

هذا المطلب قائم على الحركة والانتقال من حروف قليلة إلى أكثر منها؛ لدلالة خاصة سيقت له، يعطيه قوة؛ ذلك أن قوة اللفظ قوة للمعنى؛ ولذا يقول ابن الأثير" اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم انتقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لانزاع فيه لبيانه"(١).

وفي آية العز فعل انتقل وزنه إلى وزن آخر أكثر منه فمنحه من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا، وهذا الفعل، فعل الأمر الثاني (كبّره)، وأصله (كَبَر)، فقد ترقى معناه إلى رتبة أعلى، عندما ترقّى إلى الرباعي (كبّر) فهذا الترقي له دلالة أسمى من الفعل الأصلي الثلاثي، وهي دلالة التكثير؛ أي، أن فعل التكبير حدث من المتكلم كثيرًا. وهذه الدلالة إحدى دلالات الفعل المضعف (فعّل) (٢). وهذا التشديد في الباء في (كبّره) يمد معنى الأمر بالقوة والفخامة. وقد سبقه حرف الكاف، وهو صوت من صفاته الشدة والجهر، وهو صوت انفجاري. وعندما جاور هذا الحرف الانفجاري الحرف المشدد (الباء) زاد من قوة إيحائه ومعناه، وهو تأكيد المراد من فعل الأمر، فجاء الصوت بهذا التشديد عاليًا واضحًا في سمع المتلقي، ويكلف القارئ له جهدًا لسانيًا أقوى من المقاطع المجاورة له، وهنا تمتاز الكلمة وتنفرد صوتًا ومعنى في السياق. والسياق بهذا الفعل يؤكد أن الأمر للمبالغة في التعظيم والتنزيه، وفي أحقيته ﷻ للحمد؛ لذا صيغ على وزن (فعِّل)، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة"(٣). ومن

(١) المثل السائر: ١٩٧/٢.

(٢) ابن مالك، شرح التسهيل: ٤٥١/٣

(٣) المثل السائر: ١٩٧/٢.

دلالات هذه الصيغة أيضًا، دلالة يستوجبها السياق، حيث دلالة الحرف على التكثير في الفعل وتكراره؛ إذ تلا حرف الباء حرف الراء الساكن، وهو وسط بين الشدة والرخاوة، ومن صفاته اللسانية التكرار والترديد، وكأن هذه الصفة تتساوق وفعل الأمر الذي يشتمل على الماضي والحاضر والمستقبل، ثم تأتي (ها) الضمير المضموم، الذي ينساب في الجريان، مؤكدًا معنى الاستمرارية والديمومة. وقد أتى (كبّره) مُؤكَدًا بالمصدر النكرة؛ المفعول المطلق (تكبيرًا)، كذلك هو مشتمل على الإيجاز؛ إذ هو عوض عن تكرار الفعل مرتين؛ فقوله تعالى (كبره تكبيرًا) هو بمنزلة (كبره كبره) فعوضٌ عن التكرار بالجملة جاء بالمفرد (تكبيرًا) [١] إيجازًا ومنشئًا نغمًا خاصًا، وأخف نطقًا؛ إذ المصدر اسم، والاسم أخف من الفعل، وكذلك فإن (كبره) بعد تكراره يكون جملة فيزداد ثقلًا؛ ولذا رأى بعضهم أن التأكيد بالمصدر أولى من الفعل[٢]، وهذا يمنح بلاغة الأمر قوة وهيبة، ومعناه: "عظّمْه عظمةً تامَّةً"[٣]، وفي هذه المعاني لهذا المصدر "إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة، ولا تفي به القوة البشرية، وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد فلم يبق إلا الوقوف بأقدام المذلة في حضيض القصور والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا" [٤]؛ ولذا يعدُّ "أبلغ لفظةٍ قالتها العرب في معنى التعظيم والإجلال، وأُكدّ بالمصدر تحقيقاً له وإبلاغاً في معناه "[٥]، وبهذا ناسب أن تختتم به الآية ثم السورة؛ لأنه الأبلغ في

(١) ينظر: البرهان ٤٠٢/٢.

(٢) المرجع السابق:٦١/٣.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٥/١٠.

(٤) الألوسي، روح المعاني: ١٨٤/٨

(٥) ابن عطية، المحرر الوجيز، عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت): ٣/ ٤٩٣.

تنزيهه لله وتحميده ﷻ.

ويتوسع الرازي في تلك المعاني لقولهﷻ: (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) فيقول"ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقرونًا بالتكبير ويحتمل أنواعًا من المعاني. أولها: تكبيره في ذاته. وثانيها: تكبيره في صفاته. النوع الثالث: من تكبير الله تكبيره في أفعاله. النوع الرابع: تكبير الله في أحكامه. النوع الخامس: تكبير الله في أسمائه. النوع السادس: من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيًا بكنه مجده وعزته. وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم[١].

المطلب الرابع: الأصوات.

أولًا: الاشتقاق.

وهو عند ابن جني "على ضربين: كبير وصغير؛ فالصغيرُ ما في أيدي الناس وكتبهم؛ كأن تأخُذَ أصلًا من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغته ومبانيه"[٢]، فالاشتقاق الصغير هو الذي ينصرف إليه الذهن عند الاشتقاق، وينقل السيوطي تعريفًا آخر فيه إعادة صياغة لما ذكره ابن جني عن الاشتقاق الصغير، فيقول "الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنًى ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها؛ ليدل بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفًا أو هيئة"[٣] ، فالاشتقاق الصغير من وسائل نمو

(١) ينظر: الرازي: مفاتح الغيب: ٤١٩/٢١.

(٢) ابن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، (د.ت): ١٣٥/٢.

(٣)السيوطي، المزهر، تحقيق: محمد أحمد جاد وآخرون، دار الكتب العصرية، بيروت، (د.ت) : ٣٤٦/١.

اللغة، وتوالد موادها، وتكاثر كلماته، وهو أوسع دائرة وأكثر دلالة، وهو المحتج به[١].

وهذا النوع من الاشتقاق[٢] ورد كثيرًا في هذه السورة؛ فقد جاء (٢٩) مرة في (٢٢) آية، وهذا يولّد تكرارًا صوتيًا يشير إلى البنية العميقة التي تحكم المعنى، وهو في هذه الآية (كبره تكبيرًا) وجذرهما واحد، (كبر) والفعل منه (كَبَرَ، كَبُرَ، كَبِرَ، أَكْبَرَ، كَبَّرَ،كبِّر...)المصدر منه (كَبْر، كِبْر ، كُبْر ، إِكْبَار، تَكْبِيْر...)، فالتغير بين الأصل والمشتق هو زيادة في مادة الأصل، وهذا نوع من أنواع التغيرات التي يكون بها الاشتقاق[٣]، وهو فعل أمر مجزوم بالسكون، جاء للمخاطب المفرد ﷺ ومن يصح مخاطبته من أمته. و(تكبيرًا) مصدر له، مفعول نائب عن فعله، مفعول مطلق، وأصلهما واحد (كبر). وقد جاء الركن الأول للاشتقاق فعلًا والاخر اسمًا، وهذا يعطيه مزية أخرى تنشأ من خلال هذا التكرار، وهو أحد الأسرار البلاغية في هذه الآية، يقول عبد القاهر الجرجاني عن سر هذا الأسلوب " قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣٤٧/١. كذلك، الاشتقاق والتعريب، عبد القاهر المغربي، راجعه وعلق عليه: عبد الإله نبهان، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م :٥٠.

(٢) يُدخل بعض العلماء هذا النوع من الاشتقاق ضمن الجناس الناقص، ومنهم ابن الأثير في (المثل السائر) وهو عنده قسمان: اتفاق في أصل الكلمة مع اختلاف المعنى، وقسم اتفاق في أصل الكلمة مع اتفاق في المعنى. وقد ناقش د. علي الجندي هذه المسألة، ورأى أن صنيع ابن الأثير قد جانبه الصواب، واستدل برأي بعض العلماء، من أهل اللغة والبلاغة، من أمثال الحموي وابن رشيق، فهم يرون أن القسم الأول هو المتوافق ومصطلح الجناس، أما القسم الثاني فهو اشتقاق فحسب؛ إذ معنى المشتق يرجع إلى أصل واحد، والمراد من الجناس اختلاف المعنى في ركنيه. ويأخذ الباحث برأي د. الجندي. ينظر: علي الجندي، فن الجناس، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت): ١١٦ وما بعدها.

(٣) ينظر: السيوطي، المزهر: ٣٤٨/١.

أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك شيئًا، وقد أحسن الزيادة ووفاها"[1]، فأضفى ذلك نغمًا صوتيًا ودلاليا في آنٍ، أسهم في تأكيد معنى المبالغة في تعظيم الله وتكبيره، وقد تحقق هذا المعنى أيضًا من التنوع بين الكلمتين، ولكلا اللفظتين موقعها المناسب في توضيح الغاية من هذا الأسلوب، فهو من التكرار المفيد، ومن جمالياته المتولدة من الاشتقاق أنه تكرار تتوق إليه الأسماع لجمال وقعه، ودلالة معناه، ولخلوه من الابتذال، فتوظيفه المناسب يتجلى وكأنه جديد استقر نهاية الآية.

هذا من الناحية اللفظية السمعية، ومما يعطي هذا الاشتقاق مكانة بيانية أنّه يؤدي وظيفة عقدية وإيمانية بتثبيت معاني الربوبية والألوهية والأسماء والصفات التي سعى سياق هذه الآية إلى تأكيدها ولفت الأسماع إليها، وبذلك يحقق هذا الاشتقاق من خلال بنية التكرار وظيفتين: وظيفة إيقاعية، يسهم في بناء إيقاع داخلي، ينسجم وما سبقه من اشتقاقات خُتمتْ بها فواصلُ كثيرٍ من آيات هذه السورة، ووظيفة تأكيدية بها يتجذر المعنى المراد في وجدان المتلقي وعقله.

ثانيًا: الفاصلة.

يقول الزركشي محددًا موقع الفاصلة، وشيئًا من فوائدها، وسبب تسميتها بذلك "تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلام، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها"[2] . وقد قسم الزركشي، ووافقه السيوطي، ومن أتى بعده، الفاصلة القرآنية إلى ثلاثة أنواع: اثنان لهما علاقة

(١) أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م: ١٦.

(٢) البرهان: ٥٤/١.

باللفظ والنغم، والثالث له صلة بالمعنى[١]. فالنوع الأول والثاني، فيأتي في ثلاثة أقسام: من ناحية الوزن، وقسم من ناحية التماثل أو التقارب في مخارج الحروف، وقسم ثالث من ناحية ارتباطها بما قبلها في المعنى[٢].

وقد توافقت فاصلة آية العز (تكبيرًا) مع هذه الأقسام الخاصة باللفظ مع الفاصلة في آيات السورة؛ فمن ناحية الوزن: فقد أتت على وزن تفعيل[٣]، وهذا الوزن هو الشائع للفاصلة في هذه السورة، ومن ناحية التقارب مع ما سبقها من فواصل فقد أتت بعض فواصل السورة متقاربة معها، من مثل (تنزيلاً، تفصيلاً)، ومن ناحية التماثل في مخارج الحروف فقد اتفقت حروف الروي وما قبله مع فواصل بعض الآيات، من ذلك (تبَّروا ما علَوا تتبيراً)، (ولا تبذِّرْ تبذيرًا).

أما النوع الثالث، وهو ما له صلة بالمعنى، ففواصل القرآن لا تخرج الغاية من توظيفها عن أربعة أنواع : التمكين والتصدير، والتوشيح، والإيغال[٤]، وفاصلة آية العز مرتبطة بما قبلها؛ فتحقق فيها نوع التمكين والتوشيح، أما الإيغال فلم يظهر لي شيء فيها؛ إذ الفاصلة فيها ليس لها حكم الاستقلال في المعنى، والذي يظهر من المعنى والسياق هو التمكين، وأما التصدير، أن تكون لفظة الفاصلة بعينها تقدمت في أول الآية[٥]، وهذا لا ينطبق على فاصلة آية العز.

ونعود إلى نوع اللفظ، والنغم الصوتي لنتوقف عند حرف الروي لفاصلة آية

---

(١) البرهان: ٥٤/١.

(٢) ينظر: السيوطي، معترك الأقران، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م:٤٢.

(٣) سيأتي توضيح ذلك بعد قليل.

(٤) ينظر: السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن:٣١.

(٥) ينظر: المرجع السابق: ٣٨.

العز، وهو حرف (الراء)، وحركته الفتح التي تظهر ألفًا، وأول مزية لهذه الفاصلة، أن حرف رويها سبقه حرف مدّ (الياء) "سمى أهل العروض الحركة الطويلة (حرف المد) التي تأتي قبل الروي (بالردف) فهي من نوع الروي ذات الحركة الطويلة، وهي التي يطلق عليها عادة (حروف المد)" [(١)]، وحرف الردف جاء هنا مسبوقًا بحركة كسر (تكبِيرا). والمدّ في حرف الردف (الياء) يزيد في النغم الصوتي للفاصلة؛ إذ هي ذات حركة طويلة، بالإضافة إلى امتداد حركة الفتح في الراء، وهو حرف وسط بين الشدة والرخاوة. ومن صفاته اللسانية التكرار والإطالة، وكأن هذه الصفة تتساوق وفعل الأمر الذي يشتمل على الماضي والحاضر والمستقبل، فالمد الصوتي بحرف الياء يطيل من الزمن، وطول الزمن حين ننطق بحرف من الحروف يجعله أوضح في السمع[(٢)]، ثم بعد (الراء) تأتي (ألف) الإطلاق، ذات الإيقاع الصوتي الواضح المديد، وهذا لا يتأتى في الفواصل الساكنة.

ونلحظ التقارب الصوتي لهذه الفاصلة مع بعض فواصل السورة، ويتفرع من ذلك التكرار الصوتي في هذه الفاصلة في بعض آيات السورة، فهي مفعول مطلق، تكرر بسببها تكرار هذا المفعول المطلق، وبه كانت مجانستها لفظيًا مع فعل اشتقت منه، فقد أتت عشر فواصل متجانسة ومتوافقة في الوزن الصرفي (تفعيل) من ذلك: (تبَّروا ما علَوا تتبيرًا) (فصَّلناهُ تفصيلاً)، (ولا تبذِّرْ تبذيرًا)، (وفضلنا ... تفصيلاً)، (نَزَّلناهُ تنزيلاً)، (فدمرناهم تدميرًا)، وهذا التجانس الصوتي ينشئ وظيفة إيقاعية من خلال التكرار الذي أحدث انسجامًا موسيقيًا خاصًا، كذلك فإن هذا التجانس الصوتي الذي اعتاده القارئ قبل هذه الآية هيأ للتنبؤ

(١) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م: ٢٦٣.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٢٦٤.

بنهاية فاصلة آية العز، وهنا يحسن الإشارة إلى الأسلوب البديعي (التوشيح)، فالفاصلة تُعلم قبل ذكرها [١]، ويتنبأ القارئ بها، ويطمع في موافقتها لما تنبأ به؛ فعندما أتى الأمر بالتكبير (كبره) وتأمله عرف أن بعده (تكبيرًا) لما تقدم من الدلالة عليه والإشارة إليه، فصدر الجملة الإنشائية يخبر عن عجزها.

وتفرّع من هذا المصدر المؤكِّد (تكبيرًا) جمالُ النغم الصوتي في الفاصلة، الذي تكوّن من (التنوين) المشارك في تكامل المعنى، وهو غاية التعظيم، فالتنغيم الصوتي بالتنوين ليس حلية لفظية حسية فحسب، وإنما في ردفها معنى لطيف، وهو الارتقاء بالسياق باكتمال معنى التعظيم والإجلال لرب العزة والجلال، وقد تكررت تلك الفاصلة –التي قبلها راء مسبوقة بحرف مد مفتوحة الحركة– في سورة الأسراء ثلاث عشرة مرة: (كبيرًا ٦ مرات)، (بصيرًا ثلاث مرات)، (مسحورًا ثلاث مرات)، (غفورًا وشكورًا مرتين)؛ لذا نشأ عن هذه الفاصلة عنصر الإيقاع والتنغيم والتطريب[٢] الذي يرومه البيان القرآني، وبه يؤدى المعنى، وتتكامل الدلالة، وهذا يرجع إلى قدرة حركة الفتح في الفواصل؛ إذ حركة الفتح، وألف المد المتفرعة عنها "أوضح كل الحركات في السمع"[٣] فشارك هذا النغم الصوتي المكرر في المعنى، وهو تأكيد الأمر بالتكبير.

وبهذا التماثل والتقارب في مخرج الفاصلة (راء مسبوقة بحرف مد) تحْسُن

(١) سمي توشيحًا؛ لأن "نفس الكلام يدل على آخره؛ نزّل المعنى منزلة الوشاح، ونزّل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح" ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير: ٢٢٨؛ ولذا قيل فيه: إن الفاصلة تُعلم قبل ذكرها. ينظر: الزركشي، البرهان: ٩٥/١.

(٢) ينظر: الزركشي، البرهان: ٦٨/١.

(٣) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر: ٢٦٣.

بلاغة الفواصل، وتتجلى حكمة معناها، وهو نوع من الترنّم الصوتي[١]؛ ولذا يقول الرماني " وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة؛ لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة"[٢]. وبذلك يظهر المعنى العميق الذي تسعى آية العز إلى استقراره في عقل المتلقي ووجدانه في أحسن صورة يدل عليه، وهذه هي الغاية من سبك فواصل هذه السورة، والسور أجمع، بهذا الحسن والجمال.

المطلب الخامس: بلاغة المناسبة.

مناسبة السياق علم مؤثر في فهم مراد النص "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"[٣]، ويقول الإمام البقاعي عن علم المناسبة في القرآن، وعلاقته بإعجاز القرآن الكريم "بهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين :أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني :نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب "[٤]، وفائدته: جعل أجزاء الكلم بعضها آخذ ببعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[٥].

ولهذه الآية مناسبة مع ما قبلها من آيات قريبة من السورة نفسها، ولها مناسبة ثانية مع مطلع السورة، ومناسبة أخرى مع السورة التي تلت سورة الإسراء،

---

(١) ينظر: محمد الحسناوي. الفاصلة في القرآن، دار عمار، الأردن، ط٢، ١٤٢١هـ: ٢٨٠.

(٢) الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦م:٨٦.

(٣) ينظر: الزركشي، البرهان: ٣٦/١.

(٤) نظم الدرر: ١١/١.

(٥) ينظر: الزركشي، البرهان: ٣٦/١، السيوطي، الإتقان: ٦٣٠.

وهي سورة الكهف، فهذه ثلاث مناسبات سنقف عليها بإذن الله.

فأما مناسبتها مع ما قبلها من آيات قريبة من السورة نفسها فقد تجلى بها حسن النظم باتساقها مع ما قبلها من آيات، عن طريق حرف العطف (الواو) الذي به كان حسن التخلص من الأمر العام بقوله ﷻ(قل آمنوا به ... ويقولون، قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن)، ثم إلى النهي الخاص له ﷺ (ولا تجهر بصلاتك)، ثم فعل الأمر الخاص، (وقل الحمد لله) فكان الارتباط متينًا، والسبك محكمًا، وتلتقي معها في الغاية العامة، وفي المعنى الخاص، وبذلك كانت براعة التخلص وحسنه[1]. ويتجلى حسن التخلص من خلال حرف العطف (الواو) في بادئ الرأي أنَّ بين جملة المعاني الأولى والأخيرة استقلالاً، وأنه خلاف المبدوء به؛ بيد أن العطف بالواو أوجد جهةً جامعة بينها، هو خشية الله، ورأسها تنزيه ﷻ عما لا يليق به، فـ(وقل الحمد لله) جاء الأمر مكملًا لعناية الله بنبيه ﷺ ولطفه به، وبأمته بهذه التوجيهات والأوامر التي ترشد إلى الطريق الحق في تعظيم الله وخشيته وتقديره حق قدره، مما يضفي على سياق هذه الآيات، ومشهدها روعة وجلالًا لا يناسب مطلعها غير صيغ الأمر المتتابعة التي كانت خاتمها تنزيه الله وتوحيده. وصدور هذه الأوامر من الله يكسبها قوة ورهبة وامتنانًا له ﷻ. وهذه المعاني المدرجة من بديع براعة التخلص ما فيها، يقول ابن أبي الأصبع "وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز، وهو دقيق في عين الغبي خفي يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد. وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، فإنك تقف من الكتاب العزيز على مواضع تجدها في الظاهر فصولاً متنافرة لا تعرف كيف تجمع بينها، فإذا أنعمت النظر، وكنت ممن له دربة بهذه

(١) سماه ابن أبي الإصبع (براعة التخلص) ينظر: تحرير التحبير: ٤٣٣، والقزويني (حسن التخلص) ينظر: الإيضاح: ٤٣٢.

الصناعة، ظهر لك الجمع بينهم"[١].

وأما مناسبتها مع مطلع السورة؛ فقد افْتتِحت بالتسبيح، وخُتِمت بالتحميد[٢]، والتسبيح مُقدّم على التحميد[٣]، ويرصد الألوسي إعجابه من لطف تيك المناسبة، فيقول "وما ألطفَ المناسبةَ بين ابْتداءِ هذه السُّورة، وهذا الختامِ وليس ذلكَ بدعًا في كلامِ اللَّطيفِ العلام" [٤].

ويتفرع عن ذلك محسن بديعي آخر، وهو (تشابه الأطراف)، وهو قسمان معنويٌّ ولفظيٌّ. والذي يتوافر في آية العز هو المعنوي، وتعريفه" أنْ يختمَ المتكلم كلامَه بما يناسبُ ابتداءَه في المعنى"[٥]، وسماه المدني (تناسب الاطراف) وقال: هو "عبارة عن أن يبتدئ المتكلم كلامه بمعنى، ثم يختمه بما يناسب ذلك المعنى الذي ابتدأ به"[٦]، وتسميته بتناسب الأطراف أنسب لمحتوى آية العز؛ إذ يكشف هذا الأسلوب البلاغي قوة الترابط بين مطلع السورة وخاتمتها من خلال بلاغة المناسبة، فبذلك يناسب هذا المصطلح مسماه.

ومن امتدادات بلاغة المناسبة بين المطلع والختام أن بعض المفسرين ذكر أنّ آية المطلع (سبحان الذي أسرى بعبده) على معنى الأمر؛ أي "نَزِّهُوا اللَّهَ

(١) تحرير التحبير: ٤٣٣.

(٢) السيوطي، مراصد المطالع، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ:٥٤.

(٣) ينظر: الزركشي، البرهان: ٣٩/١.

(٤) الألوسي، روح المعاني: ١٨٥/٨.

(٥) القزويني، الإيضاح: ٢٦١. وأدخله ضمن (مراعاة النظير) قال: "ومن مراعاة النظير ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى" الصفحة نفسها.

(٦) أنوار الربيع: ١٩٤/٤.

تعالى وبَرِّئُوهُ مِن جميِ النَّقائصِ"(١)، ونقل الزركشي عن شهاب الدين المقدسي أن هذا المطلع للسورة يحتمل الأمر والخبر(٢)، فبذلك تكون السورة قد افْتتِحت بالأمر بتنزيهه عن كل نقص، واخُتتِمَت بالأمر بحمده؛ لأنه المستحق لذلك، فكان في هذا الختام تناسب أطراف أبان عن روعة بيان هذه الآية، ويؤكد البقاعي على حسن بديع التوافق بين المفتتح والختام فيقول: "ولذلك وغيره؛ من المعاني العظمى؛ سَمّى النَّبيُّ –صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِهِ وسَلَّمَ– هذه الآية آية العزّ... وذلك عيْنُ ما افْتُتِحَت به السُّورةُ من التَّنْزيه؛ وزيادة" (٣).

ومن كمال التناسب بين الاستهلال والختام أنهما اتسقا في نظم المعنى؛ فمع أنّ التسبيح مُقدُم على التحميد، ولذا نقول (سبحان الله والحمد لله)، فمع هذا الترتيب اللفظي إلا أن بينهما امتزاجًا وتكاملًا في الدلالة؛ ذلك "أنَّ التَّحميد يدلُّ على التَّسبيح دلالةَ التَّضَمُّنِ، فإنَّ التَّسْبِيحَ يدلُّ على كونه مُبَرَّأً في ذاته وصفاته عن النَّقائص والآفات، والتَّحْمِيدُ يدلُّ مع حصولِ تلك الصّفة على كونه مُحْسِنًا إلى الخلقِ مُنْعمًا عليهم رحيمًا بهم، فالتَّسْبِيحُ إشارةٌ إلى كونه تعالى تامًّا، والتَّحْميدُ يدلُّ على كونه تعالى فوق التَّمامِ"(٤)، ثم يأتي بعدهما الأمر بالتكبير لعظمته، فجاء البيان القرآني على أكمل ترتيب وأبلغ تدرج؛ إذ بدأ بالأهم فالأهم لاتساق العلة والسببية في هذا الترتيب والتدرج(٥)، وقد جمع بينهما في آية واحدة في مفتتح سورة التغابن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

(١) الألوسي، روح المعاني: ٦/٨.

(٢) ينظر: البرهان: ١٨١/١.

(٣) نظم الدرر: ٥٤١/١١.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب: ٢٢٤/١.

(٥) ينظر: الزركشي، البرهان: ٢٤٧/٣.

ومن محاسن مناسبة الأطراف أنّ مفتتح السورة كان المشار إليه بالخطاب هو ﷺ بضمير الغائب، (سبحان الذي أسرى بعبده) وفي ختام السورة كان المشار إليه بالخطاب نفسه ﷺ؛ بيد أنه كان خطابًا مباشرًا بضمير المخاطب من خلال فعل الأمر (قل)؛ ذلك أنّ من أهم موضوعات السورة أنها كانت تتحدث عن شخصية النبي ﷺ وجداله مع كفار قريش، فكان حسن استهلال السورة به ﷺ، وكان هو حسن الختام؛ فقد، خُصّ النبي ﷺ في المبتدأ والمنتهى، وفي المنتهى خُتمت السورة بآية العز، إشارة إلى أن من أُسري به إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة في الدارين(١).

وبذلك يُجْمِل هذا التوافق بين المفتتح والختام محور السورة الذي دارت عليه، وهو توحيد الله وتنزيهه واللهج بالتحميد لمقامه ﷻ، وبشارة للنبي ﷺبالنصر والتمكين، وهذا شأنُ جميعِ خواتيم السور، فهي "في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد وتهليل، إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى في النفوس بعدها تطلع ولا تشوف إلى ما يقال"(٢).

وأما مناسبتها لما بعدها، وهي سورة الكهف فإن هذه السورة خُتمت بالجملة الإنشائية من خلال الأمر بالحمد، ثم افْتُتحت سورة الكهف بالجملة الخبرية (الحمد لله)، ويعلل البقاعي روعة هذا المسلك بقوله " لما خُتِمَت تلك بأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بالحمد عن التَّنزُّهِ عن صفاتِ النَّقْص لكونه أَعْلَمَ الخلق بذلك، بُدِئَتْ هذه بالإِخْبارِ باسْتِحْقاقِهِ سُبْحانَهُ الحمد على صفاتِ الكمالِ الَّتِي منها البَراءَةُ عن كُل نقص"(٣)، ففي اختتام سورة الإسراء بالتحميد افتتحت سورة الكهف

(١) ينظر: ابن عجيبة، البحر المديد: ٤٤/٣

(٢) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير: ٢٦٠.

(٣) نظم الدرر: ٥٤١/١١.

بالحمد، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف[١]، وهذا المسلك من حسن التخلص؛ فبعد طلب الحمد لتنزُّهِهِ ﷻ عن صفات النقص، وبينما هو آخذ فيه إذ أخذ إلى معنى الحمد ابتداء، وجعل الأول سببًا إليه، فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض، وبذلك أسهمت (آية العز) في قوة الترابط بين السورتين، وهذا تأكيد على عظم شأن هذه الآية، وكبير مقامها في سورة الإسراء وفيما بعدها، وهذا التأكيد يؤكد المُؤكَّد بأن القرآن كلَّه كالكلمة الواحدة.

(١) ينظر: السيوطي، أسرار ترتيب السور: ١٠٥.

الخاتمة:

أولًا: النتائج.

لقد حاولت الدراسة بيان إعجاز هذه الآية، والكشف عن بعض أوجه الإعجاز البياني فيها، ومن ذلك:

- في مطلب الدلالات، أن أسلوب التعريض في هذه الآية له فوائد جمّة تتداخل بين اللطف والتهديد، وأن في مجمل دلالة أسلوبه فيها يؤكد أن المقام مقام حمدٍ وتنزيه في آنٍ، وأنه تكوّن من خلال دلالة العبارة والسياق.
- أن عبارة التعريض تكشف أنه تعريض بمن اعتقد بأن الله ﷻ قد اتخذ ولدًا، وأن له شريكًا في الملك، وأن له وليًا من الذل، وهم المشركون واليهود والنصارى، فهو توبيخ لهم وتقريع، فالتقت هنا الحقيقة بالتعريض في سياق واحد
- في مطلب دلالة التراكيب، استبان أن أسلوب الأمر في الآية ليس من باب الإلزام والوجوب فحسب؛ وإنما عند التأمل يظهر أنها تنعطف على لطف في العبارة، وتشريف للنبي ﷺ في الخطاب، وحسن تعليم له، وكمال توجيه.
- وأيضًا في مطلب دلالات التركيب، أن أسلوب الأمر خرج عن أصل وضعه في هذه الآية إلى دلالة الإرشاد، فالفعل (قل) يتضمن فعلا إرشادياً للنبي ﷺ ولأمته، وأنه قائم على الدوام من الماضي والحاضر إلى المستقبل، فالدلالة الزمنية هنا هي على الدوام والاستمرار.
- أن فعل الأمر في الآية أحال على كل لفظ (قل) في السورة نفسها؛ فقد جاء مكررًا في مواضع مختلفة من السورة، بلغت (ست مرات) فهو من أكثر أساليب الإنشاء الطلبي تكرارًا فيها.
- أن الأمر الثاني في الآية (وكبره تكبيرًا) جاء معطوفًا على الأمر الأول؛ لدلالةٍ تتسق وغاية النظم.

- أن أسلوب (النفي) جاء متتابعًا من خلال الأداة (لم)، وقد وظفه البيان القرآني دون سواه لما تتمتع به (لم) من الدلالة الزمنية المختصة؛ قلب زمن المضارع إلى الماضي، الذي لا يتحقق أبدًا، فسبحانه وتعالى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك، ولم يكن له ولي من الذل في الماضي المستمر الذي لا يتحقق أبدًا.
- أن صياغة النفي جاءت عن طريق الماضي، وليس عن طريق المستقبل، فلم يقل (لن يتخذ، لن يكون...) لأن ذلك أتى متساوقًا وقولهم الباطل، فالمقصود تكذيب قولهم، وقد قالوا ذلك في الماضي، فانبنى الكلام وفق إفكهم.
- أن القيد في قوله تعالى (من الذل)؛ قيد مترتب على أنه لمّا كان اتخاذ الولي قد يكون للانتصار والاعتزاز به والاحتماء من الذلّ، وقد يكون للتفضل والرحمة لمن والى من صالحيّ عباده كان النفي لمن ينتصر به من أجل المذلة، فلما كان مورد الولاية يحتمل هذين الوجهين نفَى الجهةَ التي منها يتولد النقص، بخلاف الولد والشريك فإنهما نفيًا على الإطلاق.
- أن تقديم (الحمد) على لفظ الجلالة (لله) تجلى من خلال وسيلتين: لفظية وبلاغية، فالوسيلة اللفظية أتت من طريقين: الأول، أنّ جملة (الحمد لله) أُسند فيها الحمد عن طريق الجملة الاسمية بإسناد الخبر إلى المبتدأ. والطريقة الأخرى، أن الجار والمجرور في المسند متعلق بالحمد، فيفيد معنى التخصيص، كما تفيد اللام قوة تعلق العامل بالمفعول.
- أنه من الناحية البيانية البلاغية كان لتقديم المسند (له) على المسند إليه (شريك، ولي) فائدة تؤكد المعنى العام للآية، وهو الأمر بحمد الله، فمن أجل هذا المعنى قدّم النظم ما يخص المستحق للحمد، وهو الجار والمجرور العائدة لله ﷻ.فحقق ثلاث فوائد بيانية: أن في التقديم للجار والمجرور تخصيصًا وقصرًا لنفي الشريك والولي مع الله؛ إذ نتج عن إقرار التخصيص والقصر تمكين الخبر في ذهن المتلقي، متلذذًا بذكر هذا المُقدَّم ﷻ.

- أن أسلوب التقسيم كشف أن آية العز قد استوفت أهم موجبات حمده ﷻ، وشملت أكثر الشُبه التي يقول بها المشركون واليهود والنصارى وغيرهم في حقه ﷻ، فهي من التَّقسيم الحاصر.
- أنه تفرع عن ذلك أسلوب حسن النسق؛ فقد شملت كل المنفيات مع الله، معطوفة بعضها على بعض، في تلاحم وانسجام فريد، وعند استقلال كل منفيٍّ وحده في سور أخرى تقوم كل جملة للنفي بنفسها، ويستقل معناها بلفظها.
- أن في أسلوب التعريف بـ(ال) تأكد أنها لاستغراق الجنس، وقد حقق تعريف الحمد عددًا من الدلالات البلاغية، من أهمها، أنه حقق معنى القصر، وأنه للمعرفة الشهرة الذي لاينكرهما أحد، ولا يشك فيهما شاك بأنه هو المستحق وحده للحمد والتمجيد، وبذلك تدل على الاختصاص اللّائق بالله ﷻ والملك والقدرة، وهي أبلغ من قولنا مثل قولنا (حمداً لله) الفعل (أحمد الله).
-أن الذكر الحكيم نكّر لفظ (ولدًا)؛ لأنه لو عرفه بـ(ال) لأكسبه قيمة معنوية تحدده؛ إذ ستكون (ال) هذه للعهدية، أي: الولد المعهود لدى النصارى، أو عزير عند اليهود، فكل طائفة تنسبه إلى المعهود لديها، كذلك أراد البيان القرآني أن يشمل النفي كل ولد يتجدد زعمه حتى قيام الساعة.
- أن كلمة (شريك) نُكّرت لتشمل الشريك في الربوبية وفي الألهية وفي الأسماء والصفات وفي القضاء والقدر وفي الحكم والأمر. وقد أتت جميع النكرات في هذه الآية مسبوقة بنفي لتدل على العموم.
- أن أسلوب الوصل ظهر في قوله ﷻ: (وقل الحمد) عطف هذه الجملة على ما قبلها (ولا تجهر)، والسرُّ البياني للوصل هو التوسط بين الكمالين، وأنّ وصْل الأمر (وكبره تكبيرا) بالأمر الأول (وقل الحمد لله) لدلالةٍ تتسق وغاية النظم، وهي الدلالة على ما تقدم أنه ﷻ هو الكامل وما عداه ناقص، فهو ترتيب من خلال العطف، فيه توكيد وتقوية للأمر الأول؛ ذلك أنه إذا كان

الـمُخبَر عنـه فـي الجملتـين واحـدًا فإنـه يـزداد معنـى الجمـع فـي (الـواو) قـوة وظهورًا.

- أن في مطلب وزن الفعل مضعف العين، كان فعل الأمر الثاني (كبّره) وأصله (كَبَر) قد ترقى معناه إلى رتبة أعلى، إلى الرباعي (كبّر) وهو أسمى دلالة من الفعل الأصلي الثلاثي، وهي دلالة التكثير؛ أي أن فعل التكبير حدث من المتكلم كثيرًا.
- أن الاشتقاق في هذه الآية جاء من من الاشتقاق الصغير (كبره تكبيرًا) وجذرهما واحد، وقد ورد كثيرًا في هذه السورة؛ فقد جاء (٢٩) مرة في (٢٢) آية، وهذا يولّد تكرارًا صوتيًا يشير إلى البنية العميقة التي تحكم المعنى، ورأسه حمد الله وتنزيهه؛ مما يعطي هذا التكرار مكانة بيانية، يؤدي وظيفة عقدية وإيمانية بتثبيت معاني الربوبية والالوهية والأسماء والصفات التي سعى سياق هذه الآية إلى تأكدها ولفت الأسماع إليها.
- أن في مطلب الأصوات توصلت الدراسة – في جمال الفاصلة– إلى أن التجانس الصوتي مع ما قبلها أنتج أسلوب (التوشيح)، فالفاصلة تُعلم قبل ذكرها، ويتنبأ القارئ بها؛ فعندما أتى الأمر بالتكبير (كبره) وتأمله عرف أن بعده (تكبيرًا) لما تقدم من الدلالة عليه والإشارة إليه، فصدر الجملة الإنشائية يخبر عن عجزها.
- أن المصدر المؤكِّد (تكبيرًا) تفرّع عنه جمالُ النغم الصوتي في الفاصلة، الذي تكوّن من (التنوين) المشارك في تكامل المعنى، وهو غاية التعظيم، فالتنغيم الصوتي بالتنوين ليس حلية لفظية حسية فحسب، وإنما في ردفها معنى لطيف، وهو الارتقاء بالسياق باكتمال معنى التعظيم والإجلال لرب العزة والجلال
- أن مناسبة آية العز مع مطلع السورة أنها افْتتِحت بالتسبيح، وخُتِمت بالتحميد، وأنه تفرع عن ذلك محسن بديعي آخر، وهو (تناسب الأطراف)،

وظهر أن من محاسن مناسبة الأطراف أنّ مفتتح السورة كان المشار إليه بالخطاب هو ﷺ بضمير الغائب، (سبحان الذي أسرى بعبده) وفي ختام السورة كان المشار إليه بالخطاب هو نفسه ﷺ؛ ليؤكد أنّ من أهم موضوعات السورة أنها كانت تتحدث عن شخصية النبي ﷺ وجداله مع كفار قريش، فكان حسن استهلال السورة به ﷺ، وكان هو حسن الختام.

- أن مناسبتها لما بعدها، وهي سورة الكهف كانت خير مناسبة؛ فقد خُتمت سورة الأسراء بالجملة الإنشائية من خلال الأمر بالحمد، ثم افْتُتحت سورة الكهف بالجملة الخبرية (الحمد لله)، فبعد طلب الحمد لتنزُّهِهِ ﷻ عن صفات النقص، وبينما هو آخذ فيه إذ أخذ إلى معنى الحمد ابتداء، وجعل الأول سببًا إليه، فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض، فكان الارتباط متينًا، والسبك محكمًا.

ثانيًا: التوصيات.

وبعد هذا التشرف بالتمعن فيما تكتنزه هذه الآية من وفرة في الإشارات البيانية استبان أنها مثل جميع آيات القرآن المعجز المبين وسوره، وأنها لا تزال بحاجة إلى فضل تأمل، وزيادة فهم؛ **لأنها جزء من كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه؛ وإنما يُفهم كلٌ بمقدار ما يفتح الله عليه**، والله الموفق للدارسين إلى مزيد من التأمل لاستخراج ما فيها من مكنون البيان الأعلى.

ثالثًا: المصادر، وأهم المراجع.

- القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م.
- إبراهيم محمد الخولي، التعريض في القرآن، دار البصائر، القاهرة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- إبراهيم بن منصور التركي، تيسير علم المعاني، النشر العلمي والترجمة بجامعة القصيم، ١٤٣٤هـ.
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، درا الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- أحمد بن محمد بن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة ١٤١٩هـ.
- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت١٤٣١هـ /٢٠١٠م.
- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، حقيق: الدكتور حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث، (د.ت).
- بدر الدين محمد الزركشي، في البرهان في علوم القرآن، دار التراث، تحقيق: محمد أبو الفضل، (د.ت).
- برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب السور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، بدوي طبانه، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
- الحسين بن علي الطيبي، فتح الغيب في الكشف عن قناع الريب، طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤، ٢٠١٣م.
- الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- ابن الزبير الغرناطي، البرهان في ترتيب سور القرآن، وزارة الأوقاف، المملكة المغربية، تحقيق: محمد شعباني، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ.
- شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١٥هـ.
- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٤٢٩/٢٠٠٨م.
- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، أسرار ترتيب السور، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا – مرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، (د.ت).
- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.
- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد وآخرون، دار الكتب العصرية، بيروت، (د.ت).

- عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة – دار المدني، جدة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- عبد القاهر المغربي، الاشتقاق والتعريب، راجعه وعلق عليه: عبد الإله نبهان، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.
- عثمان بن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤ (د.ت).
- علي الجندي، فن الجناس، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
- علي صدر الدين المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٩هـ.
- علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦م.
- عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة هجر، القاهرة، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م.

- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع: تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
- محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ.
- محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- محمد بن علي بن حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- محمد الغزالي، فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٦، ١٩٦٥م.
- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٣هـ..
- محمد بن مالك، شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد– محمد المختون، دار هجر، القاهرة، ١٤١٠هـ –١٩٩٠م.
- محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت (د.ت).
- مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر (د.ت).
- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م
- نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، تحقيق: محمد علي معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.

- ابـن هشـام، مغنـي اللبيـب، تحقيـق: مـازن المبـارك، دار الفكـر، دمشـق، ١٣٦٨هـ.
- أبـو هـلال الحسـن العسـكري، كتـاب الصـناعتين الكتابـة والشـعر، تحقيـق: علي البجاوي ومحمد إبراهيم، دار عيسى الحلبي، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
- يحـي بـن حمـزة العلـوي، الطـراز المتضـمن لأسـرار البلاغـة وعلـوم حقـائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢، ١٤٠٧-١٩٨٧م.